عبد الله ساعف

كتابات ماركسية حول المغرب

1860 ـ 1925

ك. ماركس ▪ ف. أنجلز

ر. لوكسمبورغ ▪ الأممية الثالثة

ترجمة: السعيد المعتصم



المعرفة التاريخية

دار توبقال للنشر

كتابات ماركسية
حول المغرب

1860 ـ 1925

Abdellah SAAF

Ecrits marxistes sur le Maroc

1860 – 1925

Publications Le Contact, 1986.

ك. ماركس ■ ف. أنجلز
ر. لوكسمبورغ ■ الأممية الثالثة

كتابات ماركسية حول المغرب

1860 - 1925

أعدها وعلق عليها

عبد الله ساعف

تقديم

بيار سلامة

ترجمة

السعيد المعتصم

دار توبقال للنشر
عمارة معهد التسيير التطبيقي، ساحة محطة القطار
بلفدير، الدار البيضاء 05 ـ المغرب
الهاتف : 24.06.05/42

تَمَّ نشرُ هَذَا الكِتَاب ضِمـنَ سِلْسِلة
المعرفة التاريخية

الطبعة الأُولى : 1987

رقم الإيداع القانوني : 1987/485



الى هنية والعياشي

أشكر جزيل الشكر السيد مدير معهد الماركسية اللينينية بليبزيغ، والسيد المسؤول عن خزانة معهد أبحاث التاريخ الاجتماعي بأمستردام (1980) للعون الذي قدماه أثناء إعداد هذا العمل.

كما أنوهُ بالعون الذي قدمه بول باسكون، ليبلغ هذا العمل مسعاه، ويخرج الى الوجود. وقد رحل عنا قبل إتمام تقديم موجِّه لهذا الكتاب.

المؤلــف

تقديم

لقد سرني أن أتعرف على عبد الله ساعف أثناء اجتماع لجنة المناقشة لتقييم بحث علي دومو بالرباط. فثقافة عبد الله ساعف ومعرفته العميقة بالنصوص التي استند إليها علي دومو وإحاطته بالواقع اليومي للمغرب وقدرته على «مد الجسور» بين ما هو ممعن في التجريد وما هو لصيق بالواقع الملموس، وعلى استخدام التصنيفات لتسهيل فهم فوضى الواقع الظاهرية وتنظيمها، كل هذه الأمور جعلتني أتلهف الى المزيد من التعرف على أبحاثه مقتنعا بأن عبد الله ساعف مؤهل للقيام بهذا العمل الذي يقدمه لنا اليوم.

إنه ليس بالأمر اليسير بتاتا البحث في مقالات ماركس وانجلز البالغ عددها 487 مقالا، وفي دراسات ومساجلات روزا لوكسمبورغ، وفي نصوص الأممية الثالثة عن كل ما له علاقة بالمغرب وتقديمه وإدراجه في حقبته. فإلى ساعف يعود الفضل تمكنه من تبيان أنه إذا كان البعض من هذه النصوص «أبعد ما يكون عن تجسيد اللحظات القوية في التحليل الماركسي للاستعمار» فإنه يكشف «أن مؤسسي الماركسية وورثتهم، بقدر ما كانوا يحملون خطابا كونيا جديدا، كانوا أيضا أبناء عصرهم». فنصوص ماركس وانجلز محدودة (قدرة اسبانيا على خوض الحرب، قدرتها الضعيفة نسبيا على الاستعمار بالمقارنة مع قدرات فرنسا وانجلترا) ولا تدرس التشكيلة الاجتماعية المغربية وتطورها مع توغل الروابط التجارية، كما لا تتخذ موقفا رئيسيا من مساوىء الاستعمار الذي تنظر إليه من زاوية مهمته الحضارية. لهذا فإن الأمر يتعلق بنصوص مهمة، ليس فقط لكونها تبرز بالقرينة المعاكسة الطريقة التي يمكن بواسطتها تقييم إسبانيا بالنظر الى فرنسا وانجلترا، ولكن أيضا لظهور بوادر التعاطف مع هؤلاء المحاربين (رجال العصابات كما يقال لهم اليوم) الذين يمارسون حرب استنزاف، وأيضا لكون الأمر يتعلق على الأخص ــ كما يشير الى ذلك ساعف ــ بلحظة أساسية من تاريخ المغرب.

وهكذا، فإن هذه النصوص ونصوص روزا لوكسمبورغ («التربة المعيلة للرأسمالية») على الرغم من عيوبها ووجهات نظرها التبسيطية والخطية أحيانا خصوصا عندما تعالج تطور الروابط التجارية مثلا، ثم نصوص الأممية الثالثة، كل هذه النصوص تمكن، ويا للمفارقة، من استعادة ملكية تاريخ المغرب على يد المغاربة أنفسهم. ولنراهن على أن الأمر ليس بالهين ! فإلى عبد الله ساعف يعود الفضل لمساهمته في تلبية هذه الضرورة. لكن، لنترك الكلمة له !... ثم للمؤلفين أنفسهم.

بيار سلامة
أستاذ مبرز بجامعة باريس الثالثة عشرة

مقدمـــة

لقد حرر ماركس وانجلز حوالي 487 مقالا لفائدة الصحافة البورجوازية New York Daily Tribune والصحافة العمالية Northern Star والصحافة الماركسية التي كانا يديرانها بنفسيهما La Nouvelle Gazette Rhénane (1). وكانت هذه المقالات في أغلبيتها مخصصة للسياسة الخارجية، كما كانت تعالج مسائل متعددة كمسألة القوميات والتوسع الاستعماري والتحالفات بين القوى القائمة... الخ.

(1) انظر فهرس طبعة :

Marx Engels Werke : «Marx Engels Verzeichnis», Dietz verlag, Tome I, Werke, Schtriften, Artikel, Berlin 1966, 27 + 358 p. et de Rubel (M) : «Bibliographie des oeuvres de Karl Marx M. Rivière, Paris, 1956, 272p et le «Supplèment à la Bibliographie des oeuvres de Karl Marx du même auteur, chez M. Rivère, Paris; 1960, 74 P.

وانظر المصنف المنشور من طرف :

Henry M. Christman :«American Journalism of Marx Engels. Selection from the **New york Daily Tribun,** The New American Library, 1966, xxx-269 p.

وبالخصوص من الملحق المقدم من طرف Louis Lazurus من نفس المؤلف، الصفحات 266 — 267.

وانظر حول هذه المسائل دراسة :

Miklos Molnar : **Marx, Engels et la politique internationale** Gallimard, coll. Idées, Paris, 1975, 385p. Berki(R.N) : On marxian thought and the problem of international relations, **Word politics,** vol. XIV, 1971, pp. 80-105;

وسلسلة من مقالات :

Papaioannou Kostas : Marx et la politique internationale, **dans le contrat social** vol. XI, n°3, mai-juin 1967, pp. 157, n°4 juillet-août 1967, pp.219-230, n°5, sept-oct.1967,pp.295-307.

ويمكن مراجعة مؤلف أصبح اليوم قديما ألا وهو :

Longuet (J) :**La politique internationale du marxisme. Karl Marx et la France** F.Alcan. Paris, 1918, 295 p.

وأولئك الكتاب القلائل الذين أبرزوا هذا الجانب من فكر ماركس وانجلز درسوه باستغراب كبعد طريف ومثير، مشيرين الى كون هذا البعد من فكرهما ليس إلا هامشيا وأحيانا مليئا بالتناقض (2). غير أن قراءة البعض من هذه النصوص، حتى ولو كانت قراءة سطحية، تكفي لانبات أن السياسة الخارجية كانت دائما جزءا لا يتجزأ، في المفهوم الماركسي الأصيل، من الصراع العام من أجل انعتاق الطبقة الكادحة، وأن صراع الطبقات يقترن بالحروب بما فيها تلك التي تنشب بين القوى الرسمية. ففي صميم الماركسية، ومنذ مواقفها الأصول الأولى، هناك انشغال استراتيجي ثابت لم يفتأ يحدد تموقفاتها ويتمثل فيما يلي : عندما تسعى البروليتاريا الى الانعتاق فإنها ستصطدم بجبهة موحدة من الدول الرأسمالية وحليفاتها ما قبل الرأسمالية. فصراع الطبقات، الدولي جوهرا، يمكن أن يبلغ ذروته أحيانا، حسب ماركس وانجلز، في السياسة الخارجية.

لقد كانت الموجة الأولى من توسع البلدان المصنعة في آسيا وأفريقيا (ابتداءا من مستهل النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى سنوات 1875) تجعل من الاستعمار إحدى النقط الأكثر بروزا في العلاقات الدولية لأواسط القرن التاسع عشر. وهكذا، فمن خلال المقالات العديدة التي كانا يكتبانها عبر المراحل المختلفة لاستعمار الهند والتوغل الغربي في الصين وحروب بلاد فارس وأفغانستان والجزائر وبيرمانيا وسوريا والمكسيك... كان ماركس وانجلز يتتبعان عن كثب المنافسات بين القوى الاستعمارية وتدمير الأنظمة الأسيوية العتيقة وإنشاء أسس مادية لنظام اجتماعي غربي ومعاناة شعوب الشرق... (3) وفي أفق توزيع الشرق بين القوى الاستعمارية أبانا عن اهتمامهما بالمغرب (4).

(2) وبالخصوص Miklos Molnar في مؤلفه السالف الذكر و Papaioannou Kostas في مقالاته المشار اليها أعلاه.
(3) انظر مثلا :

Textes sur le colonialisme Editions en langues étrangères Moscou (S.D) 431.

وأيضا :

Le recueil sur **La Chine** 10.18,Paris, 1973,448p. et sur la Russie, 10.18 Paris, 1974,311 p.

(4) كتب انجلز الى ماركس بتاريخ 4 نونبر 1859 : «اتمنى أيضا ألا تبطيء الصين وآسيا عموما في الهامي بموضوع مقال جديد. ونفس الشيء بالنسبة للمغرب. الا أن الامور لم تنضج بعد. ولربما أبدأ بالمغرب في الاسبوع المقبل. فهل سبق أن كتب حول هذا الموضوع ؟ أو هل لديك بعض الاشارات المتعلقة بسياسة بام Pam بهذا الصدد لتمدني بها حتى أكون على بينة ؟» انظر **Correspondance de Marx-Engels**,T.V;Editions Sociales,Paris 1975,p.406. وأجابه ماركس يوم 7 نوفمبر 1859 قائلا : «لا زلت لم أكتب أي شيء حول المغرب، وحول القوقاز، وحول القضايا العسكرية بآسيا. ولا أتوفر على أية معلومات دبلوماسية مضبوطة حول المغرب. لهذا، فمن اللازم أن تكتب شيئا...» المصدر السابق ص 415. وانظر رسالة انجلز الى ماركس المؤرخة بيوم 17 نونبر 1859. المصدر السابق، ص 422 وما يليه وكذا الهامش رقم 37.

والواقع أن كتابات ماركس وانجلز عن المغرب قليلة، بينما تعددت مثيلاتها المتعلقة بالجزائر والتي أصبحت معروفة اليوم (5). ولقد سبق نشر جزء من هذه النصوص المتعلقة بالمغرب سنة 1931 وذلك في المجموعة التي تضم مقالات ماركس حول اسبانيا تحت عنوان Revolution in Sapain (6) وفي المجموعة التي نشرها Avineri Schlomo تحت عنوان : Karl marx On Colonization and Modernization (7) وتتعلق هذه النصوص بالحرب بين المغرب وإسبانيا التي بدأت في نونبر 1859 عندما اقتحمت الجيوش الاسبانية شمال المغرب، إذ كتب انجلز في منتصف دجنبر 1859 المقال المعنون كالتالي : Progress of the Moorish War ونشر يوم 19 يناير 1860. وفي بداية فبراير كتب مقالا ثانيا تحت عنوان The Moorish War ونشر يوم 17 مارس 1860. ولقد نشرت هذه المقالات التي كتبها بطلب ملح من ماركس، كافتتاحيات في جريدة New York Daily Tribune.

ولا نجد فيها أية إشارة، حتى ولو كانت عامة، إلى نمط الانتاج أو الدين أو الدولة... غير أننا نقف فيها على وصف لتطور العمليات العسكرية إستنادا الى المصادر الغربية وحدها (8). وعموما كما هو الشأن بالنسبة لأغلبية كتاباتهما العسكرية، فإن هذه الأخيرة تتزود من

(5) انظر :

Marxisme et Algérie.Textes de Marx Engels présentés et traduits par Galissot et Badia, 10/18, Paris, 1976.

(6) انظر :

Marx-Engels,**Revolution in Spain,** International publishers.New york,1939,255.

(7) انظر :

Karl Marx on colonialism and Modernization.His dispatches and other writings on China,India,Mexico,the Middle East and North Africa». Edited by Shlomo Avneri,Doubleday,Garden City,1969, XIV-493 p.

ويمكن الاطلاع عليها أيضا في:

Marx-Engels Werke, Dietez Verlag,Berlin,t.13:1) Der Bcherige Verlauf des kreiges gegen die Mauren p.548 et s.2) der Krieg gegen die Mauren p.560 et s.3) Der Krieg gegen die Mauren»,p.564 et s.

(8) في نفس هذه الفترة، كتب ماركس يوم 11 يناير 1860 الى انجلز «لقد كان للتعليق الصادر بصحيفة «Militar-Zeitung» في Darmstadt وقع حسن. فبفضل هذا النقد الجديد أفردت لنفسك مكانة ناقد عسكري بألمانيا، والمرة القادمة حينما تنشر ما باسمك، اكتب اسفله : كاتب «البو والراين». وسيتبين أعداؤنا المتكالبون شيئا فشيئا بأننا نحن الوحيدون الذين يفرضون أنفسهم على الجمهور دون أن نطلب منه الاذن أو نستأذن هؤلاء البلهاء» انظر:

Correspondance **Marx-Engels,**t.VI,Editions sociales,Paris,1978,p.5

الأخبار المتوفرة في تلك الحقبة وتسترشد بها. وهي أخبار سبق ونشرتها بشكل واسع كبريات الصحف الأوروبية. وبالفعل، تبرز في هذه الكتابات عناصر أوردتها تقارير المبعوثين الخاصين لهذه الصحف في الميدان (9). كما تظهر أحيانا توجهات نشرات الجيش الاسباني. إلا أنه من المناسب أن نسجل، مع ذلك، أن انجلز يخضعها غير ما مرة لتقييم نقدي (10).

ماذا تضم هذه المقالات ؟ إن سرد مجريات الحرب الاسبانية المغربية لسنة 1859 — 1860 يحتل فيها حيزا هاما. فبعد أن أبدى المغاربة مقاومة شديدة للاسبان قرب سبتة، أمام دهشة الملاحظين الكبيرة، اضطروا الى التراجع الى الفنيدق. فالدعم الذي قدمه الأسطول، والنوعية العالية للأسلحة المستعملة من طرف جيش الغزاة، مكنتا هذا الأخير من إفشال الهجومات المغربية المضادة واحتجاز Rio Martin ثم احتلال مدينة تطوان بعدئذ (11).

غير انه فيما عدا هذا السرد، تعمد هذه المقالات الى تحليل مقارن لسلوك القوى المتصارعة. فعلى العموم، يبدو المغاربة كمجرد شركاء لاسبانيا التي اعتبرت فاعلا رئيسيا، إذ يتم تحليل مجريات الصراع من جهة نظر العلم العسكري. والظاهر أن انجلز يقيم كفاءات الجيش الاسباني بالمقارنة مع الجيوش الأوروبية الأخرى، كما يسعى الى قياس محتوى المشروع الاستعماري الاسباني.

ولقد انصرف اهتمام انجلز الى مختلف العناصر المحددة لميزان القوى المتجابهة : العتاد، عدد الجنود، نوعية ودرجة التنظيم، التكتيكات المستعملة... فكل شيء في هذه الحرب يضمن للاسبان نصرا سهلا وسريعا.

ومما يشد الانتباه بالضرورة، تلك الملاحظات التي أوردها انجلز بخصوص الأسلحة المستعملة من الطرفين : أفلا تشكل هذه الأخيرة، بالنسبة للماركسية، عنصرا مهما من عناصر النمو الاقتصادي والاجتماعي ؟ ثم ألا تعكس مباشرة مستوى وشكل نمو القوى

(9) وعلى الخصوص مقالات التايمز، انظر أسفله الهامش 37، والنص الثالث. كما أن مراسل التايمز نشر مايلي :

Spanish Campaign in Morrocco ;Blakwood,London,1960.

(10) ويبدو هذا الهاجس في النصوص الثلاثة المتعلقة بالمغرب وبالخصوص منها المقال الثالث :

«The Moorish War»,New York Daily Tribune,17 mars 1860.

(11) انظر بخصوص هذه الحرب :

- Baudoz (A), et Osiris (1), Paris,1860,348p.2 édit.1868.
- Chauchar (Cap), **Espagne et Maroc; la Campagne de 1859-1860** Paris, 1862, 452p.'
- Miége (J.L), **Le Maroc et l'Europe** (1830-1894),Paris,P.U.F., 1961-1963; T.I pp.349-393;Voir aussi la bibliographie.

المنتجة ؟ فآلة الحرب الاسبانية القوية والعصرية خصوصا مع شق الطرق لارسال المدفعية الثقيلة، ثم الاستعمال المكثف للسفن البخارية، كل هذه الأشياء تتناقض مع ضعف ولا فعالية الوسائل التي يستخدمها المغاربة.

فالمدفعية، بصفتها رمزا من رموز الحداثة في القرن التاسع عشر، تضمن للاسبان امتيازا حاسما، فلقد كانت حاسمة في مختلف الحروب الاستعمارية التي كتب عنها ماركس وانجلز. وهذا ما أشار إليه انجلز في مقاله «فارس والصين» بقوله : «إن السلاح الوحيد الذي يشكل استثناء أينما حل هو المدفعية. ففي هذا الميدان يعد الشرقيون عزلا وضعفاء بحيث إنهم يضطرون الى ترك أمر تشغيلها للمرشدين الأوروبيين. وهذا مايفسر كون المدفعية متقدمة جدا على المشاة والفرسان في تركيا وفارس» (12).

غير أن انجلز في مقاله الأخير حول «حرب تطوان»، اعتبر بأن نقل المدفعية أعاق بشكل ملحوظ تقدم الجيش الاسباني، وكان من الأصوب ألا تستعمل، ذلك أن الأسلحة الأخرى التي يتوفر عليها تضمن لوحدها قوة نارية قاطعة.

ولقد استطرد انجلز حول أثر بنية القوات المسلحة، مقابلا غير ما مرة بين الجهاز العسكري الاسباني وما أسماه «الفلول غير النظامية» أي محاربي القبائل. فالانضباط والنظام والتدريب العسكري... عوامل حاسمة تعمل لمصلحة الاسبان : «والمقاومة الحالية للمغاربة غير النظاميين لن تتغلب أبدا على الجنود المنضبطين طالما حافظ هؤلاء الجنود على انسجامهم...» (13)

لقد بدأنا اليوم نقيس المكانة الهامة للهاجس الذي كان يشغل بال السلطة والنخبة بالمغرب والمتمثل في إنشاء جيش جديد (14) وذلك في الفترة التي كان يكتب فيها انجلز ومنذ

(12) انظر :

- Engels (F),La Perse et la Chine, **New York Daily tribune,** 5- VI- 1857-

(13) انظر :

- Engels (F),The Moorish War, **New york Daily Tribune,**17 mars 1860.

(14) انظر بشأن هذه النقطة :

- Laroui (A),**Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain 1830-1912,** Maspero,Paris,1977,pp.272-284.

وفي نظر ماركس لم تكن معركة ايسلي هزيمة عسكرية مغربية حقيقية. فلقد كتب ماركس في مقال Bugeaud «ففي معركة ايسلي (14 غشت 1844) التي انتصر فيها بقوات أقل عددا على جيش امبراطور المغرب، لم يحالفه النصر الا لانه باغث المسلمين على حين غرة دونما اعلان للحرب، وفي وقت كادت فيه المفاوضات الجارية أن تأتي بنتيجة» انظر مقال Bugeaud المنشور في The New American Encyclopedia 1908 المجلد الاول.

معركة ايسلي. وقد أتت الحملة الاسبانية لسنة 1860 لتثبت أنه لم يحرز أي تقدم مشهود بهذا الصدد. وتأكد مرة أخرى، من خلال الوضعية المغربية، ذلك العجز عن تحديث النظام العسكري على الشاكلة الأوروبية. وهو عجز يرمز بشكل أوضح لدى ماركس وانجلز، الى انحلال امبراطوريات الشرق الذي لا مرد له. وعندما يبطل العجب إذا لم تؤت جهود إعادة تنظيم الجيش أكلها. فماركس وانجلز على وعي بأن إدخال التنظيم العسكري في البلدان «المتوحشة» ليس مسألة تقسيمات جديدة أو تجهيزات جديدة أو تدريبات على الطريقة الأوروبية»... فتطبيق قانون الفن العسكري الأوروبي لا يولد على التو التكتيك والاستراتيجية المتبعتين بأوروبا. فالشيء الرئيسي بل والأصعب هو إنشاء سلك للضباط وضباط الصف... قادر على بث الحياة في الجنود الجدد.» (15) ويقلص انجلز هنا مسألة التنظيم العسكري الجديد الى مجرد مسألة تدريب ومسألة وقت. ومع ذلك، لا يمكن بأي حال أن نستبعد إقرار انجلز بكون هذا الأمر يتطلب تغييرا شموليا لبنيات المجتمع المغربي. أو لم يكتب هو نفسه، سنوات قلائل من قبل، بأن تحديث الجيش الاسباني يتطلب إصلاح الحياة المدنية بأكملها ؟ (16)

وفي نظر انجلز، فإن إمكانية جعل الجنود يعملون بشكل متناسق للوصول الى نفس الهدف، من شأنها، مبدئياً، أن تخول أي جيش تفوقاً بيناً، حتى في الميادين الأكثر ملاءمة لنصب الكمائن. فليست هناك أية قوة «لانظامية» تستطيع أن تقف في وجهه حتى ولو كان الفارق بنسبة اثنين الى واحد. ومع ذلك فإن هذه النسبة كانت معكوسة أثناء الحرب الاسبانية بالمغرب حينما تمكن المغاربة من فرض طريقتهم في القتال بالاستنزاف ونصب الكمائن، حيث كان التفوق الفردي للمغاربة في هذا الشكل من القتال يضاهي المزايا الهامة للجيش الاسباني الأكثر عددا وعدة بل والمتميز بتنظيمه.

واستنادا الى انجلز، لم يحسم في أي شيء في نهاية المطاف. فالمقاومة المغربية تعوض عن ضعف الوسائل المادية والبشرية باستخدام التكتيك المناسب وباستبسال المقاتلين خصوصا في العمليات الحربية الأولى، إذ سرعان ما ارتكب المغاربة خطأ أدوا ثمنه غاليا، ذلك أنهم تركوا حرب العصابات وشنوا معارك المواجهة المخططة.

(15) انظر :

- Engels (F), **la Perse et la Chine** précité.

(16) انظر :

- Engels (F),The Spanish Army ,dans **Putnam's monthly**, 1855 (décembre),p.571.

وعلى المستوى التكتيكي، يرى انجلز بأنه من غير المألوف أن يتباطأ الاسبان في زحفهم وهم على ما هم عليه من قوة نارية هائلة : «فالوضعية يوم 20 دجنبر (1859) لم تتغير قيد أنملة عما كانت عليه يوم 20 نونبر (1859)... ولا زال الإسبان يلتزمون وضعية دفاعية» (17). وأضاعوا الوقت في مناوشات لا طائل من ورائها في ظروف لا تلائمهم ألبتة. ولا شك أن المسؤولية تقع على عاتق قيادتهم. وهذا ما عبر عنه انجلز بوضوح في أول مراسلة له لصحيفة New York Daily Tribune حين قال : «وحينما نرى القائد (الاسباني) يتردد ويلتزم وضعا دفاعيا، فإننا لا يمكننا أن نكن تقديرا كبيرا للجيش الاسباني» (18). ودفعه هذا البطء «الذي لم يسبق له مثيل حتى الآن في الحرب الحديثة» (19) إلى إصدار أحكام أخرى أشد صرامة حيث كتب «بأن معدات الجيش الاسباني وأفكاره بالية» (20). فما لا شك فيه أن وضعية الجيش تعكس مستوى تطور المجتمع الاسباني.

لقد جاءت هذه النصوص في شكل ملاحظات تندرج في صميم التقنية العسكرية الصرفة، وتفتقد تلك الأهمية التي لمثيلاتها حول الجزائر والهند... الغنية بالملاحظات حول التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية لهذين البلدين. بل إن التحليل العميق للنزاع منعدم، وذلك في وقت سبق فيه لمؤسسي الماركسية أن طوروا معرفتهم بالعالم العربي.

ومن جهة أخرى، لا تضم هذه المقالات أي عنصر جديد بالمقارنة مع كتابات ماركس وانجلز العسكرية الأخرى، إذ لانقف فيها على أية احالة مباشرة للمفاهيم الأساسية للماركسية (العنف والقاعدة الاقتصادية وبنيات العنف الفوقية...) ذات الصلة بالقضايا

(17) انظر :

- Engels (F), Progress of the Moorish War, **New york Daily Tribune,** 19 janvier 1860.

(18) انظر :

- Engels (F), Progress of the Moorish War, **New york Daily Tribune,** 19 janvier 1860.

(19) انظر :

- Engels (f), The Moorish War, **New york Daily Tribune,** 8 février 1860.

(20) انظر :

- Engels (F), The Moorish War, **New york Daily Tribune,** 17 mars 1860.

العسكرية (21). إلا أن انجلز، مع ذلك، يبرز في هذه الكتابات أهمية الشروط المادية، ويأتي بتقسيمات كيفية وكمية حول طبيعة الميدان، والقرب من البحر، والوديان، والدور الحاسم الذي يلعبه المناخ في هذا النزاع، ثم التضاريس العامة والبنية التحتية للمواصلات واستمرارية التموين... غير أن هذا الاهتمام ذاته «بمزايا الميدان» ليس مسألة تنفرد بها هذه النصوص، فلقد سبق لانجلز أن تطرق لها، مثلا، في النص الذي نشره في شكل كراسة مغفلة الاسم تحت عنوان «البووالراين» (مارس 1849) ثم على الأخص في نص تحت عنوان «السفوا ونيس والراين» (فبراير 1860) وهو نص تزامن مع حرب تطوان (22).

هكذا ترتسم لنا، دون عناء، صورة «الجنرال» انجلز وهو يلقي نظرته على مسرح العمليات. فخلال الحلقات المتعددة لهذه الحرب، وقبل أن تأخذ المعارك وجهة جديدة، يمكنه أن يرى وأن يتوقع، إذ يبسط الخريطة أمامه ويدرس طبيعة الميدان، ويحدد النقط الاستراتيجية ويقيم التكتيكات المعتمدة فيقترح تكتيكات بديلة... غير أنه يصعب علينا أن نتقبل ركونه الى مجرد تدوين الوقائع العسكرية أو حتى قيامه بعمل معاكس، عمل أولئك الذين أطلق عليهم Von Clausewitz منظري المدرسة الهندسية ألا وهم تقنوقراطيو الحرب. فخلف كل تعليق حول التسليح أو التنظيم أو ممارسة العلم العسكري، ترتسم لنا صورة فيلسوف التاريخ. فعلى ساحة الوغى تتواجه في الحقيقة تشكيلتان اجتماقتصاديتان. وتشكل عناصر هذه الحرب (الأسلحة، عدد الجنود، انعدام المهارة، البنيات، الخطابات...) رموزا تشير الى طبيعة نموهما اللامتكافىء. ولم يفتأ تعبير انجلز الساخر يذكر طيلة هذه النصوص أن الفارق لا يحسم في شيء.

ولن تتم قراءة هذه المقالات مالم نسائلها عن تلميحاتها وعن بعض ملاحظاتها التافهة ظاهريا، وما لم نحلل المركز الخاص الذي تفرده للمغرب على ضوء المفهوم الماركسي العام للاستعمار. فبالنسبة لانجلز تشكل حرب المغرب لسنة 1860، كأغلبية الحروب الاستعمارية في القرن التاسع عشر، مدرسة حرب بالنسبة للجيش الاسباني. فكما أن الجزائريين والأفغان والفرس لم يتم استحضارهم في هذه النصوص إلا كخصوم يلقنون دروسا للجيوش الغربية، فإن المغاربة يلعبون نفس الدور تجاه الاسبان. «فلا زال يتعين على الاسبان أن يتعلموا الشيء الكثير في فنون الحرب قبل أن يكون بمستطاعهم ارغام المغرب على الجنوح

(21) انظر بشأن هذه القضايا :

— **Ecrits militaires; violence et constitution des Etats européens modernes,** textes de Marx-Engels traduits et présentés par Roger Dangeville, l'Herne, Paris 1970, 661 p.

(22) نشر في **Ecrits militaires** السالف الذكر، صفحة 332 وما يليها.

الى السلم» (23). ويهتم انجلز أيضا بالعبر التي لن يفوت المغاربة أنفسهم أن يستخلصوها من النزاع. ففي معرض انتقاده لمبادرتهم بمواجهة الاسبان وجها لوجه، عاد انجلز للتأكيد على قيمة حرب الاستنزاف. «فحرب العصابات هي الوسيلة المناسبة لاستنزاف عدو يعاني ضيقا كبيرا في تحركاته. بسبب العراقيل الضخمة التي لم يكن على دراية بها والتي يصعب تجاوزها في بلد قاحل يفتقر للطرق، وذلك كيفما كان تفوقه في الانضباط والتسليح» (24). ونقف هنا على قانون عام استخلصه انجلز وماركس من ظروف أخرى في كتابات عسكرية سابقة. فالجيوش العصرية تخلق لنفسها مثل هذه «العراقيل» بسعيها الى الزيادة من حركيتها بحيث إنها تورط نفسها بنفسها في معداتها التقنية والعسكرية.

وإذا كان انجلز يبرز حدود قدرات الجيش الغازي، فإنه يشير من جهة أخرى الى شجاعة المقاتلين المغاربة. ولقد خصص Miklos Molnar وKostas Papaioannou تعاليق جوهرية للتقابل الذي أقامه ماركس وانجلز بين الشعوب العليا والشعوب الدنيا، بين الشعوب التاريخية وبين الشعوب اللاتاريخية (25). وأقل ما يقال بهذا الصدد هو أن هذا التصنيف يؤدي الى إصدار أحكام قيمية تتناقض ودقة نهج ماركس وانجلز في مجمله.

ويشوش هذا الجانب الغامض من فكر واضعي الماركسية على انسجام ودقة المسعى الشمولي. غير أنه فيما عدا هذه المفترضات «العنصرية»، التي لا مناص منها حتى لدى شخص من طينة ماركس أو انجلز، فإن معيار التصنيف يضفي على التحليل طابعا من الموضوعية. وهذا المعيار هو : الثورة. فمن جهة هناك شعوب تقع في معسكر الثورة وتتزامن تحركاتها مع التقدم (مثل الشعب الألماني والبولوني والمجري...) ومن جهة أخرى هناك أولئك الذين ينساقون مع لعبة الرجعية الدولية (السلافيون عموما باستثناء البولونيين والرومانيين الخ).

وتوجد هذه الأصناف نفسها في النصوص المتعلقة بالاستعمار : فمن جهة هناك شعوب يجب استعمارها من أجل خير الانسانية ومنفعتها (الهند والصين على سبيل المثال). فنفور كارل ماركس وفريديريك انجلز من هذه المجتمعات يجد تفسيره في وضعيتها المتأخرة وفي

(23) انظر :

- Engels (F), The Moorish War, **New York Daily Tribune,** 17 mars 1860.

(24) انظر :

- Engels (F), The Moorish War, **New york Daily Tribune,** 8 février 1860

(25) انظر : Miklos Molnar المؤلف السابق الذكر، ص 251 وما يليها، وانظر كذلك .Papaionnou Kostas

طابعها شبه المتوحش، وفي إطارها المؤسسي الاستبدادي، كما يجد تفسيره على الخصوص في الواقعية التاريخية للرجلين. غير أنهما، مع إقرارهما بقوة الرأسمالية وحتمية تطورها، ينفردان بموقف تجاه النهب الاستعماري ويقدران مقاومة ضحايا الغزو حق قدرها.

ومن جهة أخرى، هناك بعض الأمم «الضرورية» والتاريخية التي تملك الخصائص اللازمة للتحرر والبقاء (أفغانستان، الجزائر وبلاد فارس مع بعض التحفظات...) والمعيار الفاصل لا يتمثل في ذات هذه الشعوب الجامحة، ولكنه يتجسد في إمكانياتها التاريخية في ظروف تاريخية محددة بشكل ملموس. ولا شك أن التعابير التي يصف بها انجلز خصائص المحاربين المغاربة تجعلهم يندرجون في هذا الصنف الثاني.

ففي المقال الأول، يلاحظ انجلز بأن المغاربة «يقاتلون بشكل جيد للغاية» (26). وحينما بدا له أن حدة الصراع قد احتدمت قرب تطوان، التزم التحفظ حول نتيجة المعارك، ملاحظا المصاعب الكبيرة التي تواجه اسبانيا بالمغرب. وتكهن على المدى البعيد بالفشل التام للحملة العسكرية الاسبانية. «... فلقد بدا أن الاسبان يقاتلون عدوهم بازدراء ما فتىء يغذيه انضباطهم العالي وسلسلة الانتصارات المحرز عليها في القتال (في البداية). ولكن يبقى أن نرى ما إذا كانت هذه الثقة في النصر ستصمد عندما يخلص هذا القتال حتما الى حرب عصابات منهكة، مستغلة أحوال الطقس وتسرب العياء الى الحملة، لتجهز على الجيش ماديا ومعنويا...» (27). ففكرة مراقبة الجيش الاسباني للمغرب كانت تبدو فكرة وهمية، ولم يكن لهذه الحرب، إذن، من أفق واضح في أعين الاسبان.

ولنلاحظ كيف أن اعتبارات انجلز حول صمود الشعوب تبدو اليوم دون مستوى المواقف المبدئية للينين بخصوص الحرب العادلة والحرب الجائرة (28). ولنلاحظ أيضا كيف أن نظريات تطويق البادية للمدينة الرأسمالية تبدو طوباوية. أمام هذه العناصر الأولى من مسألة نظرية العلاقات الدولية.

(26) انظر :

- Engels (F), Progress of the Moorish, **New York Daily Tribune,** 19 janvier'

(27) انظر :

- Engels (F), The Moorish War, **New York Daily Tribune,** 8 février 1860.

(28) كتب لينين في مؤلفه «الاشتراكية والحرب» : (موقف الحزب العمالي الاشتراكي الديموقراطي لروسيا من الحرب) : «... ولو أن المغرب يعلن الحرب غدا على فرنسا، وتحدو حدوه الهند ضد انجلترا والفرس أو الصين ضد روسيا... الخ لاعتبرت حربا «عادلة»، «دفاعية» أيا كان البادىء، وسيتمنى كل اشتراكي من أعماق قلبه انتصار الدول المقهورة، التابعة، والمهضومة الحقوق على القوى «الكبرى» القمعية والاستعبادية الغاصبة. انظر

Oeuvres,t.21;. Paris;Editions . sociales,1960,311.'

لقد سبق لماركس وانجلز أن اهتما بالواقعة الوطنية في الشرق وتعرفا عليها بتلك الصفة في موضوع مصر على سبيل المثال (29). والواقع أن الوصف التقني الصرف للعمليات العسكرية وهاجس استيعاب حركة تعميم الرأسمال في كافة أرجاء المعمور لم يكن يظهر أنهما يشجعان، في هذه المرحلة من نمو الماركسية، على التفيكر في الوطنية.

وتبدو الصفحات المخصصة للمشروع الاستعماري الاسباني بالمغرب ضئيلة بالمقارنة مع عدد الكتابات المتعلقة بالتوسع الاستعماري لقوى أخرى كبريطانيا العظمى بآسيا (الهيمنة البريطانية على الهند وحرب الصين وبلاد فارس...) وتلك المتعلقة بتوسيع الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية (غزو الجزائر، أحداث سوريا، حملة المكسيك) ثم تلك المهتمة بتنافس القرن بين روسيا وانجلترا... وعلى ما يبدو، فإن الهم الحاضر باستمرار لدى ماركس وانجلز هو البحث عن بؤرة الحروب والثورات. ففيما يتعلق بإسبانيا، فإن أهميتها لا يمكن أن تكون إلا محدودة. ذلك أنه إذا كانت في ما مضى قوة عالمية، فإنها لم تعد تلعب أي دور بارز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كما أن اضمحلالها تزامن مع اضمحلال الامبراطوريات الكبرى بآسيا (تركيا، الصين، بلاد فارس الصفوية، هند كبار المغول...). ومن خلال بنيات تشكيلتها الاجتماقتصادية، كان ماركس لا يرى فيها إلا بقعة آسيوية داخل أوروبا الحديثة (30).

لقد كان ماركس وانجلز يفردان لكل قوة دورا خاصا في استعمار وتحديث جزء معين من العالم «المتوحش». فليس هناك قوة لم يكن لها دور محدد تنجزه في هذا الباب بما في ذلك تركيا. فلقد عقد ماركس وانجلز آمالا كبيرة على هذه الأخيرة لنشر هياكل عصرية ابتداءا من الشرق الأوسط وانتهاءا بالجزائر. ومن البديهي أن مهمة القوى الاستعمارية، انطلاقا من روح عمل ماركس وانجلز، لا يمكنها أن تندرج بأي وجه من الوجوه في أية تبشيرية كيفما كانت، ارتكازا على تفوق استعلائي أو عنصري، بل إن هذه المهمة تتعلق بدور موضوعي داخل مسلسل تاريخي تحكمه قوانين بحيث إن ما يبدو اليوم متقدما قد يعتبر متأخرا في ظروف مغايرة.

ونلاحظ أن المغرب لم يدرج في مجال التهدئة التابع لاية قوة سواء أكانت غربية أم شرقية. فهل جاءت حرب تطوان في الوقت المناسب لتوكل للاسبان أمر تهدئة هذه الامبراطورية التي يجهل عنها ماركس وانجلز كل شيء حتى الآن ؟

(29) انجلز الى برنشتاين، 9 غشت 1882، انظر :

Werke t.35,p.349.

(30) انظر :

- Marx (K),l'Espagne révolutionnaire, **New york Daily Tribune,** 9 IX 1854.

فعلى الرغم من أن اسبانيا تحمل كل ملامح المجتمع الأسيوي داخل أوروبا الرأسمالية، فإنها لا تقل ايمانا بأنها مؤهلة للقيام بهذا الدور. أو لم تستفد من نتائج التقدم بالقارة، ابتداءا من تلك القوة النارية الهائلة التي استعرضتها طيلة ستة أشهر من حملتها الشاقة على طول الساحل الشمالي للمغرب وانتهاء باستخدام الملاحة البخارية ؟ أو لم تؤكد بالحاح إرادتها في ممارسة حقوقها التاريخية و «واجبها الحضاري» بالمغرب ؟

لقد انكب انجلز، طيلة وصفه للحملة، على تبيان الفارق الكبير بين مقدرة اسبانيا المحدودة على الاستعمار من جهة، والمقدرة الهائلة لفرنسا ولانجلترا من جهة أخرى. وعمد غير ما مرة في هذه النصوص الى مقارنة محاولات الجيش الاسباني المترددة وأخطاءه وهفواته بعزم وحزم الفرنسيين بالجزائر والانجليز بالهند وأفغانستان. فلقد اعترضت طريق هؤلاء مصاعب مشابهة واجتازوها بقوة أكثر وسرعة أكبر. والظاهر أن وسائل اسبانيا المحدودة لاتبدو، في نظر انجلز، في مستوى الايديولوجية الاستعمارية التي تنسجها حول المغرب. «فستة أو اثنا عشر شهرا من حرب كهاته لا يمكن أن تكون مجرد مزاح بالنسبة لبلد كإسبانيا» (31).

حقيقة أن ماركس وانجلز، كمعلقين على أحداث الساعة الدولية، يقران بأن الهجمات التوسعية للدول الرأسمالية تتم في ظروف متباينة، غير أن هذا التباين لا أثر له على ثبات موقفهما من الانقلابات الناتجة عن اصطدام أنماط الانتاج المختلفة. فالماركسية تلتمس الأعذار للاستعمار بصفته ضرورة تاريخية وأداة غير واعية للتاريخ. ويمكن فك رموز هذه العقدة الرأسمامركزية Capitalcentrisme باعتبارها تأكيدا لأولوية التحديث الغربي. غير أن الأخذ بعين الاعتبار ضرورة الاستعمار الموضوعية بصفته واقعة تاريخية مهيمنة في تلك الفترة، لا ينبغي أن ينسينا الانتقادات والتدقيقات التي طورها ماركس وانجلز بهذا الصدد، كما لا ينبغي أن يغرب عن ذهننا تطور وجهة نظرهما عن المجتمعات غير الأوروبية (32).

إن هناك سؤال يطرح نفسه في هذا الباب : فإذا كان الجيش الاسباني جيشا عتيقا يرجع الى عهد غابر، فهل تجسد إسبانيا بحق التحديث الرأسمالي ؟ إن النصوص الواردة حول المغرب لا تتضمن عناصر الاجابة. ومن المحتمل أن يكون ماركس وانجلز قد عبرا عن

(31) وهذا ما أكدته الاحداث فيما بعد. فبعد ستة اشهر من القتال الضاري، لم يتمكن الاسبان من توسيع الرقعة التي يحتلونها حول سبتة شيئا ما الا بشق الانفس. ونظرا لعنف رد المغاربة ولشظف العيش والامراض هلك منهم 8000 رجل من أصل 40.000. ولا يفهم المؤرخون حتى يومنا هذا لماذا طلب المغرب عقد الصلح بصفته منهزما في حين أن جيشه كان أبعد ما يكون عن التفكك بل انه بدأ يحصد أولى انتصاراته.

(32) انظر :

— **Marxisme et Algérie,** Galissot et Badia, précité, pp.175 et s.

تعاطفهما مع المشروع الاستعماري حتى ولو كانت تنزعمه دولة متأخرة نسبيا كدولة اسبانيا في بلد متوحش نسبيا كالمغرب. وهنا أيضا يعد الاستعمار الطريق الأمثل الذي من شأنه أن يقود المغاربة المنعوتين «بانصاف المتوحشين» نحو التقدم... وما يرويه ماركس عرضا عن سلطان المغرب العجوز وعن استبداده لايدع مجالا للشك حول التمثل الذي يتهيأ لماركس حول وضعية التوحش السائد بالمغرب. «فكلما كانت محاكمة ما معلقة، فإنه لا يعرف أي عامل أكثر قوة في حجب الجدل سوى قتل الطرفين معا» (33).

ويتسم مقال انجلز حول «التجليات الخارقة، عبد القادر...» بالوضوح التام. فباعتباره غزو الجزائر واقعة ايجابية، يلاحظ انجلز بأن هذا الغزو قد دفع حكام الدول المجاورة ومنهم «امبراطور المغرب الى سلوك طريق الحضارة» (34)، وذلك بسعيه وراء وسائل أخرى للعيش عوض نهب البلاد والبلدان الأجنبية، بل إن الدين الاسلامي ليس إلا تغطية ايديولوجية لنوبات التوحش.

«إن الحضريين، وقد أصبحوا موسرين ومترفين، يتراخون عن احترام «القانون». أما البدو الفقراء فينظرون بحسد وطمع الى هذه الثروات والملذات. فيتحدون تحت قيادة نبي هو المهدي لمعاقبة الكفرة وإقامة الشعائر الدينية والعقيدة الحقة ثم الاستيلاء على كنوز الكفار مكافأة لهم على ما قاموا به. وعلى رأس كل مائة سنة، يجدون أنفسهم، بطبيعة الحال، في نفس وضعية من سبقوهم. فيحق التطهير مرة أخرى فيظهر مهدي جديد ليتم إجراء اللعبة من جديد. ولقد جرى الأمر على هذا الشكل منذ فتوحات المرابطين والموحدين الأفارقة باسبانيا...» (35).

إن ما يشد الانتباه هو ترديد انجلز لفكرة النهب التطهيري للمدينة على يد البادية، نهب الرحل للحضريين المستقرين وذلك على رأس كل مائة سنة. ألا يكون هذا مجرد تداخل خلدوني صارخ في نص انجلز ؟ إنه لا يعدو أن يكون مجرد استمرارية لخطاب ماركس

(33) انظر :

- Marx (K), La question indienne — le droit du tenancier irlandais, paru dans **le New York Daily Tribune** le 11 janvier 1853 (n[3816).

(34) انظر :

- Engels (F), Les extraordinaires révélations d'Abdelkader... paru dans The **Northern Star**, vol.XI,22 janvier 1848,n 535,p 7.

(35) انظر :

- Engels (F), **Contribution à l'histoire du christianisme primitif** dans Die Neue Zeit. Marx Engels Werke,t.22,note de la page 450.

المعروف حول نمط الانتاج الأسيوي والجمود الهندي. وفي هذا التحليل المقتضب، يلح انجلز على العنصر المتواتر كما يلح أيضا على غياب التغيير : «فهي حركات ناتجة عن أسباب اقتصادية على الرغم من تنكرها في قناع ديني. غير أنها حتى عندما تنجح، لا تحدث أي أثر في الظروف الاقتصادية، وهكذا لا يتغير أي شيء ويصبح الصدام دوريا.» (36).

هذه المناقشة التي نتجاوز فيها اخفاقات الغير ونعيد الكرة الى ما لانهاية، هل تسلك بنا الى نتيجة ما ؟ وهل لها معنى ؟ فالتأكيد الجازم على أن الرمزي يسبق المادي يحتل شطرا كبيرا من بعض المجادلات الايديولوجية المتعلقة بالتاريخ وبالبنيات الاجتماعية. إلا أنه من الصعب أن نزيح دفعة واحدة المنطوق المتين لانجلز حيث يقول : «هي حركات ناتجة عن أسباب اقتصادية على الرغم من تنكرها في قناع ديني.» (37) فليس هذا هو المهم في قوله. ولا يمكن اختزال النقاش في هذه اللعبة الشكلية الميكانيكية المتمثلة في أسبقية البنيات الفوقية على البنيات التحتية. فالعنصر المهم يكمن في ملاحظة غياب التغيير. ذلك أن التراكم في إطار سياسي أو دولتي معدل ومطهر لا يمكن أن يكون ذا محتوى تحديدي إذا كان هذا التراكم لا يعني التقدم أو حتى مجرد التغيير. فالتباين كبير «الثورات الشعبية في الغرب، لأن التستر وراء الدين يستخدم فيها (...) كراية أو كقناع للهجوم على نظام اقتصادي أصبح باليا. وفي الأخير حينما يقلب النظام، يقوم نظام جديد محله ويكون هناك تقدم، فالعالم يسير» (38).

في الحقيقة، فإن البنية الفوقية لا تحدد شيئا ما دامت لاتغير شيئا، بل إنها لا تغير حتى مجرد إيقاع هزاتها. فالانقلابات التي تحدث فيها تتسبب قطعا في حركة فوضى وفي اضطرابات لا يمكن بأي وجه أن نطابق بينها وبين رابطة «التحديد» Détermination الماركسية. والبنية الفوقية على الرغم من تقلباتها وإعصاراتها، تظهر عجزها عن إجراء أي تغيير بارز كيفما كان، في القاعدة الاقتصادية التي لا تجد نفسها مهيأة لمثل هذا التغيير. لهذا فإن هذه الأخيرة لاتحددها تلك الأولى.

وفي خلد انجلز، توفرت في المغرب كل الشروط للانضواء تحت وصاية الغرب لما فيه مصلحة نموه، شأنه في ذلك شأن بلدان الشرق.

والأهمية التي يفردها ماركس وانجلز للمغرب لا تستند الى فكرة كون الحدث ذا أهمية كونية. فهذا النزاع لا يشكل مركز جاذبية عالمي للحروب والثورات على الرغم من أن القوى الرأسمالية القائمة آنذاك كفرنسا وانجلترا وروسيا اهتمت عن قرب بتطور العمليات.

(36) م.س.ذ

37) م.س.ذ

(38) م.س.ذ

فكمراسلين متنبهين لصحيفة New York Daily Tribune لم يراعيا إلا واجبهما في تغطية أحد أبرز أحداث الساعة كما يظهر من مراسلة ماركس وانجلز (39). ولا ينبغي أن يغرب عن ذهننا أن هذه الكتابات قد أملتها حاجة ماركس وانجلز الماسة الى كسب قوتهما. فالدلالة السياسية والنظرية لهذه المقالات محدودة. ولا غرابة عندئذ أن تتضمن وصفا غير معمق للأحداث، إذ لا نجد فيها أي عنصر إخباري حول ماضي وحاضر وآفاق التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية المغربية. فهي مقالات الروتين الصحفي، ولكن بالمفهوم الخاص الذي مارس به ماركس وانجلز الصحافة. (40) فهذه المقالات تفترض وتقترح وتؤكد التحليلات السياسية والاجتماعية والتعميمات النظرية التي طورها مؤسسا الماركسية في مكان آخر بخصوص بلدان غير رأسمالية كالهند والجزائر.

ومع ذلك، فإن اللحظة أساسية بالنسبة للمغرب. «فحرب تطوان» لم تنته بنصر حقيقي للجيش الاسباني، بل إنها دشنت عهدا جديدا في علاقات المغرب بأوروبا. وكما كتب الناصري في استقصائه متحسرا، فإن «وقعة تطاوين هذه هي التي أزالت حجاب الهيبة عن بلاد المغرب واستطال النصارى بها» (41) كما سجلت هذه الحرب، على الخصوص، تفكك الروابط الاجتماعية القديمة وإدخال هياكل جديدة (42). وإنها لصدفة فريدة أن يسترعي المغرب

(39) كتب ماركس الى انجلز بتاريخ 16 نونبر 1809 : «أتمنى أن يظهر لك مقال حول المغرب يوم الجمعة»
Correspondance Marx-Engels, tome VI, Editions sociales, Paris, 1975 p.421-

أما رسالة ماركس الى انجلز المؤرخة بيوم 17 نونبر 1809 فإنها أكثر دلالة بهذا الصدد، حيث يقول : «عزيزي انجلز، إذا لم يكن لديك أي شيء جاهز حول المغرب من الآن وحتى حدود الغد، فإن لديك مهلة تمتد الى اليوم السبت... إنني أكتب اليوم... مقالا حول مسألة السويس. فلا بد من الانكباب على القضية المغربية، وإلا فإنهم سيضطرون الى نقل ما جاء في التايمز». ويوم 19 دجنبر 1809 كتب انجلز الى ماركس.. «يستحيل أن أكتب اليوم مقالا ربما يكون من الأحسن لو اجلته الى ما بعد غد على اعتبار أن التحرك صوب تطوان سيشرع فيه بين الفينة والأخرى انطلاقا من سبتة...» أنظر
Correspondance Marx-Engels, TV précité, p-488.

وكتب انجلز الى ماركس يوم 29 يناير 1860 : «بما أن الغد مخصص لصحيفة التريبيون (كان ماركس يرسل مقالاته الى رحيفة New York Daily Tribune يوم الثلاثاء والجمعة) فإنني آسف لعدم توفر موضوع مقال من جديد. فالتعاليق المعدودة المتعلقة بالمغرب والواردة في مراسلة التايمز لا تغطي حتى القتال الدائر في كابونيكرو... انظر :
Correspondance Marx-Engels, TV. Editions sociales, Paris, 1978, p.8

(40) انظر : مصنف هنري كريستمان American Journalism السابق الذكر في الهامش رقم 1.

(41) انظر : الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري **كتاب الاستقصاء لاخبار دول المغرب الأقصى، الدولة العلوية** القسم الثالث، الجزء التاسع، دار الكتاب، الدار البيضاء 1906. صفحة 101.

(42) انظر :
Ayache (G), **Aspects de la crise financière du Maroc»,** dans Etudes d'histoire marocaine. .SMER, Rabat, 1979. p.98

انتباه ملاحظين من طينة ماركس وانجلز المتميزين بحساسية كبيرة تجاه هذا النوع من المنعرجات التاريخية في لحظة يستعد فيها المغرب بالذات للانخراط نهائيا في فلك العمل المباشر لأوروبا الرأسمالية.

لقد ورد المغرب في الفقرات التي خصصتها روزا لوكسمبورغ للاستعمار في مؤلفاتها «مدخل للاقتصاد السياسي» و«تراكم رأس المال» و«نقد النقد»، بل وذكر فيها بالاسم أحيانا (43). وإذا كانت قد استطردت كثيرا حول سياسة التوسع الاستعماري الألماني في الرأس الشمالي الغربي من القارة الافريقية في «أزمة الاشتراكية ــ الديمقراطية»، فإن المغرب قد استرعى انتباهها السجالي لمدة قصيرة نسبيا وذلك بمناسبة النزاع الفرنسي الألماني لسنة 1911. وخصصت للقضية عدة مقالات : Un Marokko (حول المغرب) Die Marokkokrise Unser Marokko Flugblatt (الأزمة المغربية واللجنة القيادية للحزب) und der Parteivorstana (منشورنا حول المغرب) (44).

إن الوقائع التي دفعت الى تحرير هذه النصوص تفسر لماذا لم تكن «الأزمة المغربية» موضوعا رئيسيا لانشغال روزا لوكسمبورغ. فنحن نعلم أن الرايخ الألماني، الحريص على تأكيد المساواة مع القوى الغربية الأخرى في الحقوق على المغرب بمقتضى معاهدة الجزيرة الخضراء، قد

(43) انظر على سبيل المثال :

L'Accumulation du Capital, Paris, Maspéro; petite collection, 1970, t.2, pp. 58, 108, 255, etc...

(44) انظر :

; Leiziger Volkszeitung (U), 198,24 Juillet 1911, p.1(حول المغرب) R.Luxemburg, **Um Marrokko** , LV, 174,3 août 1911, p.1 --- 1. **Die** (من أجل مظاهرات السلام) — 2. **Friedens demonstration** ,LV, 197, 5 août 1911, (الأزمة المغربية واللجنة القيادية للحزب) **Marokkokrisis und der Parteivorstand,** Die Gleichheit, 23, 14 août 1911, p. 353 — 354 — **Kleinbürgerliche oder**(المغرب) P.3 **Marokko** ؛(السياسة العالمية، سياسة بورجوازية صغيرة أم سياسة بروليتارية)**proletarische Weltpolitik** LV, 191,19 août 1911, pp. 1 — 2 — **Unser Marokko Flugblatt** LV, 196, 26 août 1911. — **Wieder und Führer** LV.199,29 août 1911p. 1 — 2 — Protokoll S.P.D. 1911, (منشورنا حول المغرب) القادة والجماهير من جديد) pp. 162 — 163, 204 — 207, 247—249: 348—349.Discours et remarques personnelles au Congrés du S.P.D. à Léna, les 11,12 et 14 septembre 1911. Bulletin périodique du Bureau socialiste international, Bruxelles, 1912, 8, p-129; LV. 225,28 sept. p.2. Discussion sur le (ضد الحرب) reproche d'indiscrétion au B.S.I. Zurich, 23 septembre 1911. Schwäbische Tag- «Den Weltkrieg entgegen» wacht, Stuttgart, 235,9 octobre 1911, suppl. I.P.I ainsi que (العالمية Vorwärts, 237,10 octobre 1911, suppl.I.P.I, discours prononcé à la manifestation de masse contre la guerre impérialiste, Stuttgart le 7 octobre 1911- Das Marokkoabkommen im LV, 253, 13 novembre 1911, pp.1 — 2. (الاتفاق حول المغرب بالرايخستاغ) Reichstg

أرسل في يوليوز 1911 البارجة الحربية Panther الى ميناء أكادير بدعوى حماية المصالح المحلية لمواطنيه. وكادت الأزمة أن تنقلب الى حرب بين فرنسا وألمانيا. فأخطرت سكريتارية المكتب الاشتراكي الدولي الأحزاب الأعضاء ملتمسة منهم أن يردوا على خطر المواجهة المسلحة. وأعربت كل الأحزاب عن أملها في أن تحافظ البلدان المعنية على رباطة جأشها. وقبلت الأحزاب الاشتراكية لفرنسا وانجلترا وإسبانيا على الخصوص (وهي منظمات منتمية للدول المعنية مباشرة بالأزمة) مبدأ عقد اجتماع لصياغة موقف موحد حول الوضعية. وتملص الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني من اتخاذ أي موقف. فلقد كانت قيادة الحزب، وهي على أبواب انتخابات الرايخستاغ، ترغب في تعويض الهزيمة الانتخابية لسنة 1907 بأي ثمن.

لقد كانت القيادة تخشى، بتطرقها للمشكل، أن تحيل الى مرتبة ثانوية مشاكل السياسة الضريبية، وامتيازات الملاكين الزراعيين التي تعد على مستوى السياسة الداخلية، حججا انتخابية مهمة. وتجنبا لاتخاذ أي موقف من شأنه أن ينعت باللاوطنية، لم تصدر هذه القيادة أي شعار واضح بهذا الصدد.

وارتكزت عموما المجادلات بين روزا لوكسمبورغ والقيادة حول مبدأ سرية المداولات داخل المكتب الاشتراكي الدولي، ذلك أن روزا لوكسمبورغ، التي كانت أحد أعضائه، قد اتهمت بخرق هذا المبدأ بمجرد ما اطلعت على البواعث السرية للجنة المسيرة للحزب الاشتراكي الديموقراطي (45). والواقع انها عمدت الى نشرها عنوة حتى تبرز سلبية قيادة الحزب الاشتراكي الديموقراطي، وتبين ضعف بواعثه الدولية وتتسبب في حدوث ردود فعل شعبية بألمانيا.

وتؤكد روزا لوكسمبورغ في هذه الكتابات أن من واجب الاشتراكية الديموقراطية تحريك الرأي العام وتعبئته وتحذيره من المخاطر الكامنة وراء أية مغامرة للسياسة الامبريالية الحالية على شاكلة المغامرة المغربية (46). وبجرأتها الثورية بالمقارنة مع ليونة القيادة الاشتراكية الديموقراطية، تلح روزا لوكسمبورغ على القيمة البداغوجية للانتخابات : فالهدف الحقيقي

(45) انظر بخصوص تفاصيل هذه المناقشة

Netti (J.P), **La vie et l'œuvre de Rosa Luxemburg,** tome I, Paris, Maspéro, pp- 425-433, et Badia (G), **Rosa Luxemburg,journaliste, polémiste; révolutionnaire,** Paris; Editions sociales, 1975, pp. 182-184.

(46) انظر : **Leipziger Volkszeitung** du 24 Juiller 1911..

من انتخابات الرايخستاغ هو السماح بمواصلة «عمل التربية الاشتراكية» وليس اظهار «مهام الصراع الطبقي من وجهة نظر الاقتراع فقط» (47).

وبرفضها قبول اتخاذ الانتخابات مطية لتبرير تردد وتناقض قادة الحزب الاشتراكي الديموقراطي، تريد روزا لوكسمبورغ بذلك أن تبين العلاقة المتينة القائمة بين السياسة العالمية والوضعية السياسية الداخلية للبلدان الرأسمالية.

ولا تبرز هذه العلاقة عند روزا لوكسمبورغ من جانب وظيفة الانتخابات فقط، بل أيضا من جانب طبيعة النظام السياسي للدولة الرأسمالية وعواقب الازمة على هذه الاخيرة. فمن جهة، ليس من الصدفة في شيء أن تنشب الازمة بالضبط خلال العطلة البرلمانية، مبعدة الممثلين السامين للشعب الالماني عن القرارات الحبلى بالعواقب الوبال عليه. ومن جهة أخرى، كيفما كانت عاقبة المغامرة المغربية، فإن وضعية ألمانيا التي تكاد تتورط في حرب، ستتغير بشكل قوي. فالحرب ستسبب ليس فقط في الازمة بل أيضا في نهاية الرأسمالية.

وفيما عدا هذه المستويات الثانوية من النقاش، تبرز في مجموع هذه الكتابات مواقف روزا لوكسمبورغ من الاستعمار (شروط نمو الاستعمار الالماني، الامبريالية، اللاعسكراتية، العلاقة بين الاقتصاد الرأسمالي والاقتصاد ما قبل الرأسمالي.... الخ) عبر عنها هنا في تعابير خاصة بالوضعية المغربية.

إن اعتراض روزا لوكسمبورغ على النقص الذي تتسم به شعارات الحزب المناهضة للحرب وعلى الحدود التي يعرفها انتقاد الحزب للاستعمار يشكل أول مركز اهتمام في هذه الكتابات. فاستنادا اليها، تتقلص مواقف الحزب اما الى التأكيد المبهم على عبثية السياسة الاستعمارية، وهو مجرد استياء معنوي ليس الا، واما الى التلويح الانتهازي بأن «لا فائدة ترجى من السياسة الاستعمارية حتى بالنسبة للطبقات المالكة نفسها» (48). وفي سياق هذه الأفكار تسخر من كتابات برنشتاين Bernstein التي تطلب من القوى الأوروبية على الخصوص أن تتصرف في القضية المغربية طبقا لمبادىء الاخلاق. فلقد كان من اللازم استبدال دروس الاخلاق بشرح دقيق للعلاقة بين السياسة الامبريالية والمرتبة الحالية من الرأسمالية، وبتبيان «أن السياسة الامبريالية هي نتاج طبيعي وضروري للتطور الرأسمالي» (49). وأحسن دليل على هذا هو أن كمشة فقط من مموني معدات الحرب هم وحدهم الذين يؤيدون هذه السياسة، وأن «مجموع الطبقات المالكة في ألمانيا، على غرار الدول الاخرى، تدعو الى

(47) م.س.ذ

(48) انظر
Leipziger Volkszeitung du 26 août 1911.

(49) م.س.ذ

ايديولوجية استعمارية عسكراتية وطنية» (50). فلقد كان بامكان اليمين أن يستغل، بالطبع، القضية المغربية لاحياء الشعور الوطني. غير أن هذا لم يكن كافيا، في نظر روزا لوكسمبورغ، لاستثناء المشاكل الدولية من النقاش السياسي وبالاحرى تناولها باعتبارها قيما وطنية دأبا على نهج الاوساط الحكومية وأحزاب اليمين. وفي كتاباتها اللاحقة، مثلا في «أطروحتها حول مهام الاشتراكية الديموقراطية الدولية» المنشورة كملحق «لأزمة الاشتراكية الديموقراطية» (51). ستنكر امكانية الحروب الوطنية في حقبة الامبريالية الجامحة. «فالمصالح الوطنية ليست الا خدعة تستهدف وضع الجماهير الشعبية الكادحة في خدمة الامبريالية عدوهم القاتل». (52)

إن الجزم باستحالة الحروب الوطنية سواء بالنسبة للدول الاستعمارية الكبرى أو بالنسبة للأمم الصغيرة يكاد يبدو وكأنه نتيجة سخيفة للاستعمال الميكانيكي لفكرة الامبريالية من قبل روزا لوكسمبورغ : فبتأكيدها على التوحيد العالمي للقاعدة الاقتصادية، خلصت الى تقديم العالم قاب قوسين أو أدنى من المرحلة التي ستكون فيها البشرية لا تتكون فعلا الا من الرأسماليين والبروليتاريين المأجورين. أي تلك المرحلة التي سيكون فيها الاستقلال أمرا مدانا مسبقا بحكم نواميس التاريخ حيث لن تكون هناك أية أمة بصفتها كلا منسجما وموحدا. لكن ستكون الطبقة هي الحقيقة الاولى المتمتعة بالحقوق وبالمصالح، وسيكون حق تقرير المصير أمرا مجردا ان لم نقل ميتافيزيقيا.

أن يكون أحد أبرز أخطاء روزا لوكسمبورغ، كما أشار الى ذلك بما فيه الكفاية نقادها، (53) أنها لم تكن ترى بأن بإمكان الكيانات السياسية الصغيرة أن تكون تابعة اقتصاديا ومستقلة سياسيا، فإن هذا لا يكلم في شيء من مناقبها، فتنديدها بالامبريالية وبحاجة هذه الأخيرة الى تصدير رؤوس الأموال الى المستعمرات وشجبها لشراستها، أكثر راديكالية نسبيا من تنديدات ماركس من حيث كون هذه التنديدات تتم بلغة سياسية.

(50) م.س.ذ

(51) انظر :

La crise de la social-démocratie, suivi de sa critique par Lénine, introduction par Ernest Mandel et préface de Clara Zetkin, Bruxelles, La Trape, 1970, 248p.

(52) م.س.ذ صص 220 — 221

(53) انظر :

Michael Lowy, **Rosa Luxemburg et la question nationale,** Partisans, 59—60, 1971 (reproduit dans **Dialectique et révolution** du même auteur, Anthropos, Paris, pp. 99-112)

وتبرز الفقرات المعدودة المخصصة للنزاع المغربي الطابع الحلقي لهذا الأخير في الصراع التنافسي الذي يخوضه ممثلو الرأسمالية الأوروبية من أجل الاستيلاء على هذا الجزء من أفريقيا والتهام الرأسمال له. وفي هذا الأفق، فإن المرامي الاستعمارية الألمانية بالمغرب، في نظرها، تفتقد على الأخص للمصداقية. «إذ لم يكن بالمغرب من المصالح الرأسمالية الألمانية الحقيقية إلا النزر القليل» (54).

فالامتيازات المعدنية المحصل عليها مقابل قرض مالي مقدم للسلطان من طرف الشركة الرأسمالية مانسمان Manesmann ليست حاسمة، كما أن مجموعة Krupp-Schnéider لم تكن في الواقع إلا خليطا من المقاولين الألمان والفرنسيين والاسبان. وهكذا تعمد روزا لوكسمبورغ إلى تفسير الترددات والتقلبات المفاجئة التي طرأت على السياسة الألمانية، فشبهتها «اللامحدودة» في البحث عن فريسة جعلت منها سياسة خطيرة للغاية. فطيلة السنوات السبع التي استمرت فيها الأزمة المغربية، ما فتئت ألمانيا تجذر من مطالبها حتى لأنها كانت على شفا الاحتكام الى الحرب. غير أن الأمر انتهى بها في الأخير الى الاقرار بأنها لا تملك أية مصالح بالمغرب.

لقد سنحت الفرصة لروزا لوكسمبورغ من خلال نصوصها حول القضية المغربية لرصد جانب من جوانب هيجان «الرأسمالية الألمانية الفتية والقوية، وهي تطوف العالم سعيا وراء المتسعمرات» (55) وذلك في جو من الغموض، ويتمثل مركز الاهتمام الثاني في هذه النصوص، في بعض الملاحظات التي تدخلها بين الفينة والأخرى حول المجتمع المغربي ما قبل الرأسمالي المشابه للمجتمعات التي سبقت دراستها بخصوص الجزائر والهند (56).

وتعد النظرة نفسها التي تلقيها روزا لوكسمبورغ على المجتمعات المغلوبة عنصرا مهما في نهجها، إذ تميزها بوضوح عن مواقف قيادة الحزب. فلقد دأبت هذه الأخيرة على التطرق إلى مشاكل السياسة الخارجية باعتبارها تنافسا بين القوى الرأسمالية الكبرى، بينما ترى روزا لوكسمبورغ بأن تناول المسألة من هذا الجانب فقط يعني اختزالها الى مجرد مسألة خلاف بين المقاولات الرأسمالية كما فعل برنشتاين في مقالاته حول القضية المغربية. فهذا الأخير يركز على

(54) انظر :

Rosa luxemburg, **La crise de la social-démocratie,**ouvrage précité, p.110.

(55) م.س.ذ. ص 111.

(56) انظر :

L'Accumulation du capital, précité, chap- 27 (la lutte contre l'économie naturelle), t.II, p.50 et s.et l'ouvrage de Galissot, **Marxisme et Algérie,** précité, pp.273 et s.

المطالبة بالمساواة بين كل الأمم الرأسمالية في حقها في الاستقرار بالمغرب (57). وتأتي أصالة روزا لوكسمبورغ من كونها تذكر بوجود عنصر أساسي في النزاع تحاول الأدبيات الاشتراكية الديمقراطية طمسه نهائيا ألا وهو : المغاربة.

وعلى الرغم من كون الأهمية التي تفردها روزا لوكسمبورغ للمغرب أهمية ثانوية، فإنه لم يفتها أن تشير إلى الطابع الشكلي لاستقلال المغرب منذ عقد الجزيرة الخضراء. ففي مقالها «السياسة العالمية : سياسة بورجوازية صغيرة أم سياسة بروليتارية» (58) تعتبر بأن الابقاء على سلطان المغرب ماهو إلا واجهة للتظاهر باستقلال ووحدة الدولة المغربية والواقع على حد تعبيرها أن تقسيم المغرب لم يكن متأتيا في تلك الحقبة. وجاء عقد الجزيرة الخضراء ليجسد التسوية بين فرنسا والقوى الأخرى التي كانت تتردد في الدخول في نزاع بخصوص المسألة المغربية. تم تضع من خلال ما سطرته من فقرات صورة متناقضة لدولة مغربية يأخذ فيها الملك ملامح «دمية» في أيدي القوى الأوروبية وتصبح فيها «القبائل» الخائضة لحرب مزمنة مع الأجانب المالكة الحقيقية للشرعية.

إن ما يستخلص في المقام الأول من قراءة نصوص لوكسمبورغ المتعلقة بالمغرب في هذا البعد الثاني، هو أنه، بخلاف اللهجة المعتمدة في نصوص ماركس وانجلز، هناك تطور في أفكارها بالمقارنة مع الأسلوب الذي كان يطرح به مؤسسوا الماركسية المسألة الاستعمارية بصفة عامة.

لقد أعلن ماركس بأن تدويل رأس المال سيتم في المستقبل البعيد، كما حيا استعمار أفريقيا الشمالية باعتباره عملا حضاريا جليلا. فلقد كان الرأسماليون الفرنسيون والانجليز والروس ينقضون على المناطق غير الرأسمالية من العالم، وكانوا يمثلون بحق رومان العصر الحديث المحدثين وذلك بجلبهم للحضارة الجديدة وللنظام الاقتصادي الرأسمالي. أما بالنسبة لروزا لوكسمبورغ فإن تدويل رأس المال قد تم بالفعل، وأن تلك البقع المعزولة التي لا زالت خارج فلكه، مثل المغرب، سرعان ما ستنخرط تحت هيمنته. ومن جهة أخرى، عوض أن تشيد روزا لوكسمبورغ بالاستعمار، فإنها تعير اهتماما كبيرا للتخريب الذي أحدثه الغزو الاستعماري في البلدان غير الرأسمالية وتندد به بقوة.

وفي هذا الباب، وصف المغرب، شأنه في ذلك شأن بقية المستعمرات، كتربة معيلة للرأسمالية تكيف نمو البلدان المعنية (فرنسا، ألمانيا). وبنعت روزا لوكسمبورغ للمغاربة بكونهم

(57) ذكرته روزا لوكسمبورغ في السياسة العالمية، سياسة بورجوازية صغيرة أم سياسة بروليتارية LV، 19 غشت 1911.

(58) م.س.ذ

«بدائيين» و«قبائل» من الرعاة والصيادين «المعزولين عن العالم» (59)، تعطي الانطباع بأن التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية المغربية أقرب الى الشيوعية البدائية منها الى الاقطاعية، وبهذا ينتصب المغرب كنموذج مضاد للاقتصاد الرأسمالي وكأحد مجالات توسعه وكموضوع معرض لتخريبه.

ويتقلص وصف مسلسل استعمار المغرب إلى مجرد إعلان عن أن الرأسمالية تلتهم نمط إنتاج غير رأسمالي، دون المرور بفترة انتقالية»... فتهيأ لادخال «النظام» الرأسمالي في العلاقات البدائية لقبائل الرعاة وقرى الصيادين المغاربة المعزولين عن العالم...» (60).

وتعرف روزا لوكسمبورغ الاستعمار عموما بكونه تملك الأرض والاستغلال المعمم لقوة العمل وابتزاز الربح عن طريق الاقتطاعات الضريبية (61). وفي الحالة المغربية لم يتم بسط الاستعمار بعد. وبما أن البلاد، من وجهة النظر الألمانية، لازالت موضوع تنافس، فإنها تقف عند التعداد السريع للبواعث الثاوية وراء رغبة الرايخ الألماني في توسيع امبراطوريته الاستعمارية. فالرأسمالية الألمانية تسعى الى الحصول بالمغرب على احتياطي هائل من قوة العمل، كما تطمع في الثروات المعدنية لمنطقة سوس.

وإذا كانت الفكرة الرئيسية المستخلصة من هذه النصوص هي أن النمو الرأسمالي لا يتأتى إلا بتخريب الاقتصاديات ما قبل الرأسمالية، فإن منطق الرأسمال، بذات الوقت، يقضي بأنه بقدر ما يلتهم هذا الأخير العالم بقدر ما يخرب أسسه بيده. وهكذا تبرز لوكسمبورغ التناقض القائم بين حدود السوق والتوسيع المستمر للانتاج في النظام الرأسمالي فتقسيم آسيا وافريقيا هو الهدف الأخير الذي بَعْدَهُ لن تَجِدَ السياسة الأوروبية أي مجال آخر للنمو. وعندها سيقع هناك اصطدام كما حدث مؤخرا بخصوص مسألة الشرق. ولن يبقى أمام دول أوروبا إلا أن تنقض على بعضها البعض الى أن تبتدىء سياسيا حقبة الأزمات الختامية...» (62). وتكرر

(59) انظر :

«Marokko» (المغرب) Die Gleichheit, 14 août 1911, pp.353 — 354.

(60) م.س.ذ

(61) انظر بخصوص هذه النقطة

Galissot (R), Rosa luxemburg et la colonisation: **L'Homme et la société,** 2e semestre 1974, pp.133 — 152.

(62) رسالة روزا لوكسمبورغ الى Léon Jogiches المؤرخة بيوم 9 يناير 1899.

روزا لوكسمبورغ هذه الطروحات أثناء اتخاذها موقفا من «الأزمة المغربية»، وترفقها بإقرار بدور كفاح المستعمَرين في التعجيل بنهاية الرأسمالية. وتضرب بالمغاربة المثال في ردهم الدفاعي ضد القوة الاستعمارية مشيرة الى وضعية الحرب المزمنة التي يعيشها سكان إفريقيا الشمالية في مواجهة الغزاة الفرنسيين (63) وملتمسة العذر لمقاومتهم.

وتدرج المغرب في وصفها للحركة العامة لتداعي الرأسمالية من جراء الاستعمار، كما تدرجه في تعدادها للبؤر المحتملة للثورة (64).

«فلهيب الثورة متقد في تركيا وبلاد فارس ومكسيكو وهايتي، ويأكل في صمت من بنيان الدولة بالبرتغال وإسبانيا وروسيا. فالفوضى قائمة في كل مكان، وأينما وليت تتمرد المصالح الحيوية للشعوب وقوى التقدم والنمو على ورطة النظام البورجوازي. وهكذا فإن الحملة الأخيرة لرأس المال من أجل فتوحات جديدة ليست إلا الطريق الذي سيقوده نحو حتفه. ولن تكون المغامرة المغربية في نهاية المطاف، شأنها في ذلك شأن كل حلقة من حلقات السياسة العالمية Weltpolitik، إلا خطوة نحو تعجيل الانهيار الرأسمالي. (65)».

وما تبشر به روزا لوكسمبورغ من خراب نهائي للرأسمالية لا ينبع فقط من كونها قد وصلت مرحلتها النهائية وأن هيمنتها السياسية قد بلغت حدها الأقصى، بل إنه ينجم أيضا عن مقاومة المستعمرين (بفتح الميم) أنفسهم. إلا أنه إذا كانت استراتجيتها الثورية تطابق بين صراع الطبقات والصراع المناهض للامبريالية، وإذا كان كفاح البروليتاريا يختلط بكفاح المستعمَرين، فإن الثورة المحررة للانسانية لا يمكنها أن تأتي إلا على يد بروليتارية البلدان الأوروبية.

لقد كان من المحتم انتظار لينين والأممية الثالثة لاعطاء الشعوب الخاضعة للامبريالية دورا ومستقبلا ثوريين بقدر أكبر.

(63) انظر : **أزمة الاشتراكية الديمقراطية** السالف الذكر، ص 112، وانظر أيضا **تاركم رأس المال**

(64) روزا لوكسمبورغ **تراكم رأس المال** السالف الذكر.

(65) انظر

R.luxemburg, **Marokko, Die Gleichheit,** 14 août 1911, 160 p.

لقد سبق لنضال الأممية الشيوعية ضد حرب الريف وبالخصوص منه نضال الشيوعيين الفرنسيين، أن كان موضوع أبحاث معمقة (66). واعتبر هذا النضال عموماً نضالاً مثالياً حتى من طرف أولئك الذين اتخذوا فيما بعد مواقف نقدية من الأممية الثالثة (67).

ومع ذلك، فإن هذه الأبحاث قد تمحورت حول آثار هذه الحملة داخل الحياة السياسية الفرنسية. فلقد استقطبت حرب الريف اهتماما متزايداً باعتبارها تجربة ساهمت في توطيد بعض هياكل الحزب الشيوعي الفرنسي، أو باعتبارها إحدى الفرص التي استعملت فيها، بشكل مذهل، بعض وسائل النضال كالاضراب العام، أو باعتبارها الأصل التاريخي لبعض ردود الفعل الحالية للتنظيم الشيوعي تجاه المكونات الأخرى للحياة السياسية الفرنسية... (68).

ولقد اهتمت هذه الأبحاث كثيرا بصورة عبد الكريم وبطبيعة حرب الريف كما كان يتصورها الشيوعيون. غير أنه يتعين القيام بقراءة تحليلات الأممية الشيوعية الثالثة حول هذه المسألة بطريقة أخرى، وذلك بالالحاح بقوة على طبيعة حركة التحرر الريفية واستخلاص

(66) انظر مؤلف P.Semard الذي يحتفظ بقيمته كشهادة

La guerre du Rif, Paris, Lib. de l'Humanité, 1926, 160 p.

وانظر أيضا :

Natalia Loutskaïa, **La lutte des communistes français contre la guerre du Maroc.** Pages d'histoire du mouvement ouvrier français»; Etudes et documents théoriques, février 1951, 3[3, p.9 et s.

Markovits (Claude) : **le parti communiste français et la question coloniale, de la guerre de Rif au front populaire,** 123 p. dactylo. Centre d'histoire du syndicalisme.

Nicole le guennec, **Le parti communiste français et la guerre du Rif,** le Mouvement Social, n° 78, janvier-mars 1972.

Charvin (Robert), **Le parti communistre français face à la guerre du Rif,** dans les actes du colloque international d'études historiques et sociologiques. Abdelkrim et la république du Rif. 1973, Maspéro 1976; pp. 218-236.

Galissot (René), **Le parti communiste,** ibid, pp. 237 — 357.

Madariaga (Maria Rosa), **Le parti socialiste espagnol et le parti communiste espagnol face à la révolte rifaine,** ibid, pp.308—366.

(67) انظر :

Moneta (J), **La politique du parti communiste français dans la question coloniale 1920-1963** Maspero, Paris, 1971, collection Livres Rouges 310 p.

(68) انظر على الخصوص نصوص Charvin وGalissot السالفة الذكر.

الطريقة التي كان الشيوعيون يحددونها بها، ثم استيعاب طبيعة ودرجة الأهمية التي كانت لها كحركة تحرير وطني داخل مستعمرة.

فما هي عناصر تحليل القاعدة الاقتصادية والاجتماعية للحركة الريفية التي كانت تبرز المواقف المتخذة من طرف الشيوعيين الغربيين والمناهضة لحرب الريف ؟ وما هي العلاقات التي كانت على بروليتارية المجتمعات الرأسمالية أن تربطها معها ؟ إن الجواب على هذه الأسئلة سيمكننا من معرفة ما إذا كان الشيوعيون الفرنسيون وغيرهم قد استوعبوا حقا الامكانية الثورية الريفية، أم أنهم كانوا فقط يرون فيها فرصة سانحة لتأجيج الاضطرابات في المركز (المتربول) لغايات متعددة.

إن الصورة الاجتمااقتصادية التي تقدمها صحافة الأممية الشيوعية عن المغرب بمناسبة اتخاذها لموقف من حرب الريف صورة ضبابية. والواقع أنه كلما تعلق الأمر بحصر طبيعة الروابط الاجتماعية الثاوية وراء الحركة الريفية إلا وانصب مجمل القول على تطورات أزمة الرأسمالية الفرنسية (69). فهذه الأخيرة التي انهكتها الحرب وضايقتها المزاحمة الأمريكية والانجليزية والألمانية (منذ إخلاء الزور وتقديم التعويض عينا...) ربما كانت تسعى من وراء الريف الى ايجاد منافذ جديدة : الامداد بالسلاح أثناء سير العمليات، وغزو أقاليم جديدة لتصدير المنتجات ورؤوس الأموال إليها.

ولقد أفردت مكانة كبيرة للشروح المقتضبة حول دور الأبناك واحتكاراتها على حساب الأنشطة الاقتصادية الأخرى. وفي هذه العروض، يبرز بنك باريس والأراضي المنخفضة كعمود فقري للهيمنة الفرنسية بالمغرب (70).

وبالنظر الى هذه الاعتبارات، فإن هاجس تحديد التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية المغربية وبالخصوص منها قاعدة الحركة الريفية، يحتل مكانة ثانوية على ما يبدو، فالاشارات النادرة التي أعطيت تتسم بالتنافر. وهكذا تحدث كيتاغوردسكي Kitagorodski بخصوص

(69) انظر :
Thése sur la guerre, Cahiers du Bolchévisme, 1925, pp. 1848 — 1849.

(70) انظر بهذا الصدد خطب ونصوص دوريو التالية :
— Doriot (J): **Les impérialistes et le Maroc,** Paris, Libr. de l'humanité, 1925, 54 p.et **Communisme et colonies,** du même auteur. Dupleix, **La banque de Paribas,** Cahiers du Bolchevisme, n°16, 1 er avril.

ويأخذ الاستدلال شكلا اخرا عندما يستند الى القول بأن بسط الاستعمار لم يكن لمصلحة الجميع، بل إنه تم على حساب الطبقة العاملة. كما أن المنافع الاقتصادية والسياسية التي يجلبها الاستعمار تعمل على تأخير نهايته وعرقلة وصول الطبقة الكادحة الى السلطة.

المغرب عن «اقتصاد أبوي تتميز فيه البروليتاريا بضعف في النمو، ولا زال النظام الاقطاعي قائما به بشكل كامل تقريبا اللهم إلا ما كان من مدينة الدار البيضاء» (71). وأن حركة التحرير في الريف تستند الى قاعدة فلاحية بالأساس. فالفلاحون والرعاة الريفيون البالغ عددهم 294.000 قادوا كفاحا «خليقا بكفاحات الشعوب البطولية التي كافحت على امتداد البشرية من أجل قضايا عادلة. وفي الحالة الاقتصادية المتأخرة بالمغرب، يمكن أن نقارنه بكفاح الفلاحين الفرنسيين ضد الأسياد سنة 1789، وكفاح العمال الروس وهم يطردون الرأسماليين من معاملهم ومن بلدهم سنة 1917» (72).

وفي تناقض مع هذا التقديم المتعلق بحركة للزراع في مجتمع إقطاعي، تنمو خطاطة تفسيرية للحركة الوطنية الريفية لا صلة لها بالوقائع. ولربما يعود هذا الأمر الى المصاعب التي كانت قائمة أثناء الحرب في العلاقات الاقتصادية بين المركز والمستعمرات والتي كانت تقتضي إقامة نوع من الاستقلال الاقتصادي وإنشاء صناعة محلية. وهكذا جاء ستالين بمثال الريف في معرض ذكره للبلدان التي سيتسبب فيها تزايد البروليتاريا الى نمو الحركة الثورية (73).

وإذا كانت تسمية الحركة الريفية تتم استنادا الى قاعدة اجتماعية معبر عنها بمصطلحات عامة (مزارعو الريف) أو متناقضة (مزارعو وعمال الريف)، فإن هذه التسمية غالبا ما تنمحي أمام نعوت أخرى أكثر بساطة وتعبيرا كتسميات «قبائل الريف» و«الأهالي» و«قبائليو الريف» «Kabyles du Rif» (74). ومن الثابت أيضا أن الميل الى ترجيح دور عبد الكريم والتنويه بموهبته العسكرية الاستثنائية يحجب ما يراد تسميته أحيانا بـ «الشعب الريفي».

ولا شك أن غياب الدقة عموما في تحليل الوضعية الريفية وندرة المؤشرات الاجتماعية والاقتصادية بالمقارنة مع التحليلات الغنية نسبيا والمتعلقة بالصين ومصر والهند في نفس الحقبة، يدلان مسبقا على الاهتمام النسبي الذي تستقطبه حركة التحرير الريفية.

(71) انظر :
— Kitagorodski, Aprés le Maroc, La Syrie **La Correspondance Internationale** n°61 p.505.

(72) انظر : نداء لجنة عمل الشبيبتين الشيوعيتين بفرنسا واسبانيا، «ياجنود فرنسا واسبانيا، تآخوا مع عبد الكريم» باريس يوم 30 شتنبر 1964، والمنشور في L'Avant-garde بتاريخ فاتح أكتوبر 1964.

(73) انظر القسم الأول من تقرير ستالين حول نشاط اللجنة المركزية أمام المؤتمر الرابع عشر للحزب الروسي، **دفاتر البلشفية** 1965.

(74) إن الأحزاب الشيوعية والمنظمات النقابية المنضوية في الاتحاد الدولي الأحمر لألمانيا وفرنسا وبلجيكا وانجلترا وايطاليا وهولندة وسويسرا والمجتمعين في كولونيا يوم 9 أكتوبر 1964 ... «ليتتهزون فرصة هذا المؤتمر ليهنئوا أهالي المغرب الفرنسي والاسباني على كفاحهم التحرري ضد الجنرالات الديكتاتوريين المجرمين...»

انظر : — La Correspondance Internationale, n°71, p. 778.

إن ما اتُّخذ من مواقف وما صدر من تصرفات مناهضة للحرب الاستعمارية بالريف يجب دراسته على ضوء طروحات الأممية الشيوعية حول المسألة الاستعمارية منذ المؤتمر الحادي عشر للأممية الثالثة ومؤتمر باكو.

لقد كانت طروحات لينين السائدة آنذاك تعتبر الثورة الوطنية في البلدان المستعمرة (بفتح الميم) عنصرا مهما لا ينبغي إهماله لاحراز النصر العالمي على الامبريالية. غير أنها ليست إلا عنصرا فقط وليست ـــ كما كان Roy يؤكد ـــ عنصرا أوليا عليه يتوقف مصير الثورة الغربية نفسها (75). ولقد وجهت هذه الطروحات، حتى من حيث التفاصيل والتدقيقات، مجموع الحوليات والتعاليق التي خصصها الشيوعيون الغربيون لاحداث الريف.

وهكذا كانت حرب الريف فرصة سانحة للمعالجة الملموسة لمحتوى التمييز بين الحركة الثورية وحركة التحرير، وهي إحدى نقاط الخلاف في المؤتمر الحادي عشر وفي المؤتمر الأول للشعوب المضطهدة بباكو.

لقد اعتبر كفاح الريف «حركة استقلال» (76) و«تحرر وطني» (77) و«ثورة وطنية» (78) و«حركة تمردية» (79) على الرغم من أن المصطلحات الأخرى «كالانتفاضة» و«الفتنة» و«الغليان» (80)، التي استعملت أحيانا، تبدو غير كافية لتمييز طبيعة المعركة الوطنية للريفيين.

(75) انظر مناقشات المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية في :

— **La Marxisme et l'Asie. 1853—1964 de Héléne Carrére d'Encausse et Stuart Schram;** Collection U, Armand colin, Paris, 1965, pp. 195 et s.

(76) انظر :

— J.A.R **La Correspondance Internationale, n 28,** p. 207. Voir aussi infra, p. le texte publié par la Comité d'Action des Jeunesses Communistes de France et d'Espagne, «Soldats de France et d'Espagne, fraternisez avec abdelkrim».

(77) انظر

— Raskonikov, Les événements de chine et la guerre au Maroc **La Correspondance Internationale,** n°66, pp. 544-45, et Aly Hamamou, «Les dessous des guerres d'Algérie et du Rif», La Correspondance Internationale, n°68, p. 720.

(78) انظر مقتطفات من محاضرة ستالين أمام طلبة جامعة شعوب الشرق، موسكو 18 ماي 1925، ص 55. ثم مقال :

— J.Jacob, L'impérialisme français devant la guêpier marocain. **La correspondance Internationale,** n° 75, p. 623.

(79 انظر : — Kitaïforodski, Aprés le Maroc, la Syrie, La **Correspondance Internationale,** n°92, p. 766.

(80) انظر :

— Kitaïgorodski, «Les Français au Maroc», La **Correspondance Internationale, n°53, p.430.**

وبات من الواضح في أذهان الماركسيين الغربيين أن الأمر يتعلق بحركة ذات طابع وطني سيتبلور عنها على المدى البعيد قيام حزب شيوعي مغربي طبقا لتنبؤات ستالين (81). وحتى لو اعتبرنا هذا الصراع صراعا طبقيا دوليا على اعتبار أن «الشعب الريفي الصغير يقاوم البورجوازيتين الفرنسية والاسبانية» (82)، فإن المستند الأساس يظل هو حق الشعوب في تقرير مصيرها. وفي ساعة الحساب، تطرح مسألة معرفة ما إذا كان الفشل الختامي للريفيين يعود بالضبط الى هذه القطيعة القائمة بين الثورة الوطنية والثورة الاجتماعية. فعلى حد تعبير سان جاك Saint Jacques كان بإمكان عبد الكريم أن يزيد من المقدرة القتالية لشعبه باتخاذ تدابير اجتماعية واقتصادية تخدم مصلحته (83).

ويبدو أن الأممية الثالثة اهتمت أكثر بالعواقب الممكنة للحركة أكثر مما اهتمت بمحتواها ذاته : فسكان الريف، حسب الفكرة الشائعة في الأدبيات الاستعمارية، درجوا على الاستقلال بأنفسهم. وهم بذلك يتموقعون في هذا الصراع في طليعة حركات التحرر الوطني بالمغرب وبمجموع المستعمرات. ولربما كان لنجاح الريفيين انعكاسات داخل المغرب : «الاعداد لانتفاضة أكادير». «اضطرابات بني زروال» (84). فالريفيون يتبوأون دورا قياديا في حركة التحرير الوطني العربي والاسلامي، بل «إن الثورة الوطنية التي بدأها عبد الكريم ألهبت حماس الاسلام، إذ بدأت مظفرة بالمغرب وامتدت في أشكال مختلفة الى الجزائر وتونس والسنغال والهند الصينية ومصر وبلاد الهند وكل البلدان المستعمرة أو شبه المستعمرة» (85).

إلا أنه لم يتم إستشعار الأثر الذي سيمارسه التكتيك العسكري للريفيين على كفاحات الشعوب المستعمرة، كما لم تستخلص العبرة من محتواه المثالي. ومما يثير الدهشة إنه نادرا ما يتطرق لطابع الحرب الشعبية التي تميز بها قتال الريفيين من وجهة نظر التقنيات العسكرية. وتعد الحصيلة التي وضعها كيتاغورودسكي حول سير العمليات العسكرية

(81) محاضرة ستالين السالفة الذكر.

(82) انظر خطاب زينوفيف الذي ألقاه يوم 11 يونيو في اجتماع للمنظمة الشيوعية Krasnaia Presnia

(83) انظر :

— Saint-Jacques, Sur le problème rifain, **Cahiers du Bolchévisme,** n°52, 30 juin 1926, p.1422.

(84) انظر :

— Kitaïgorodski (L), **Les Français au Maroc,** n°53, p.430.

(85) انظر J.Jacob المقال السالف الذكر وانظر أيضا

— Ali Kemal Fauladi, La guerre au Maroc, **La Correspondance Internationale,** n°61, p.505.

بالريف والوضعية في سوريا (نهاية صيف 1925) (86) من بين النصوص النادرة التي تبرز أهمية هذا المستوى من حرب التحرير لدى مغاربة الريف، إذ يشير كيتاغورودسكي الى دور الريفيين الطلائعي في كفاح القبائل المغربية المقيمة بالمنطقة الفرنسية، واضعين رهن إشارة هذه الأخيرة منظمين ومرشدين وقادة عسكرين :

«فالريفيون، على قلتهم، كانوا يُنَاوِرُونَ بمهارة، إذ يظهرون دائما في المناطق التي لم يكن الفرنسيون يتوقعون أن يظهروا فيها. ويذكر تكتيك عبد الكريم بتكتيك السيتيين Les Scythes فعندما يشن الفرنسيون هجوما، لا يجدون أمامهم أحدا، لأن المغاربة المتنقلين للغاية ينسحبون بسرعة من منطقة النيران. وهذا ما يفسر هزالة خسائرهم، في حين أن خسائر الفرنسيين أكبر بكثير.» (87).

والغريب أن هذا النص الذي يضع حدا للصمت المطبق حول هذا الجانب من كفاح الريفيين، نص وصفي قليل التنبه بالنظر الى الاشادات والتنويهات التي أبداها ماوتسي تونغ وهوشي منه بهذا الصدد (88).

ومنذ المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية، جرى التأكيد على ضرورة التعاون بين الشيوعيين والحركة الديموقراطية، حتى ولو كانت بورجوازية شريطة أن تكون معادية للامبريالية، واعتبر بمثابة قطيعة مع التقاليد العريقة للأممية الثانية التي ترجع الى عهد ماركس وانجلز. فلقد ولى ذلك العهد الذي كان فيه ماركس وانجلز يبجلان الفتوحات الاستعمارية بصفتها عملا حضاريا جليلا (89). فلقد أعلن الحزب الشيوعي الفرنسي والحزب الشيوعي الاسباني، مناهضة

(86) انظر مقال

— Kitaïgorodski, «Aprés le Maroc, la Syrie», **La Correspondance Internationale,** n°82, p.766.

(87) م.س.ذ

(88) انظر جريدة العلم ليوم 4 أكتوبر 1969 وجريدة **L'Opinion** ليوم 22 يوليوز 1978، وانظر أيضا مداخلة Vincent Monteil في مناظرة «عبد الكريم وجمهورية الريف» المؤلف السالف الذكر الصفحات 149 — 152.

(89) بخصوص الجزائر انظر

— «Les Extraordinaires révélations; d'Abd El Kader... **The Northern Star, vol.** XI 22 Janvier 1948, n°535, p.189, cité dans Marxisme et Algérie, ouvrage précité p.25

وفي نفس المعنى كتب انجلز بخصوص المكسيك : «وفي أمريكا، شهدنا غزو المكسيك. وان هذا لمما يثلج فؤادنا... فمن مصلحة نموه مستقبلا أن ينتقل الى وصاية الولايات المتحدة».

— Die Bervegungen von 1847, **Deutsche-Brusseler-Zeitung,** 23 janvier 1848, reproduit dans les «Werke», t.4, p.501.

كل منهما لحرب الريف رسميا، بأن «البروليتاريا في فرنسا واسبانيا لا علاقة لها ولا شأن لها بالفتوحات الاستعمارية» (90). وهاهي الأممية الثالثة، إذن، تعترف بهذه المناسبة لشعوب الشرق بالدور الحاسم في الثورة العالمية. غير أن بروليتارية البلدان المتقدمة تحتفظ دائما بدورها الطلائعي.

وطيلة أحداث الريف، تطورت المواقف بشكل محسوس، إذ تم الانتقال من تهنئة الأهالي على كفاحهم التحرري الى رفع شعار «التآخي» و«السلم الفوري» وأخيرا «الجلاء» عن المغرب (91).

فهذه الشعارات التي تمفصل حولها نضال الشيوعيين الفرنسيين، تترجم بشكل ملموس استنادا الى ما كتب آنذاك، تضامن العمال المتقدمين في البلدان الامبريالية مع الشعوب المقهورة في آسيا وأفريقيا : وهذا حدث جديد يعلن عن النهاية الوشيكة للامبريالية (92). ويبقى النجاح النهائي للريفيين معلقا على شرط التحالف مع البروليتاريا الأوروبية والأمريكية (93). غير أن هذه العلاقة التضمينية متبادلة، ذلك أن شعوب المستعمرات هي الحليف الطبيعي لبروليتاريات أوروبا (94). ومن شأن الهزيمة الاستعمارية أن تضعف كثيرا أعداء البروليتاريا الاسبانية، وهي بذلك عامل تحرير بالنسبة للشعب الكادح في المركز (المتروبول).

ويعد عمل كادحي البلدان الرأسمالية تجاه المستعمرين (بفتح الميم) أكثر من مجرد تمظهر لوحدة قوامها المصلحة والقمع المسلط، بل إنه يضفي زعامة بروليتارية على حركة المزارعين الوطنية (95).

(90) نداء لجنة عمل الشبيبتين الشيوعيتين لفرنسا واسبانيا، انظر الهامش رقم (7).

(91) انظر أعلاه بيان 14 ماي الصادر عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي.

(92) انظر المقال الموقع من طرف فولادي السالف الذكر.

(93) انظر :

Raskolnikov, Les événements de Chine et la guerre au Maroc, **La Correspondance Internationale,** n°66, p.544.

وانظر أيضا نص البرقية سيماردوديو التي بعث بها باسم الحزب الشيوعي الفرنسي الى عبد الكريم.

(94) انظر :

R.A. La défaite de Primo de Rivera au Maroc, **la Correspondance Internationale** n° 66, p. 714.

(95) انظر :

Nicole le Guennec, Le Parti Communiste Français et la guerre, **Le mouvement social,** janvier-mars 1972, p.40

والجدير بالملاحظة أن الهاجس الرئيسي للأممية الشيوعية ليس هو مناقشة طبيعة كفاح الريفيين أو موقف البروليتارية الغربية منه، ذلك أن نصوص الأممية الشيوعية غالبا ما تطرقت لحرب الريف بصفتها خطرا على السلم العالمي.

وتصب مجمل شعارات الحزب الشيوعي الفرنسي في اتجاه النداء الذي أصدرته سكريتارية الأممية الشيوعية الخاصة ببلدان الشرق المناهض لحرب الريف والذي تطالب فيه «بتآخي الجنود الفرنسيين مع سكان الريف للوصول الى سلم عاجل وإلى استقلال الشعوب المستعمرة» (96). وكان خطر الحرب هو الموضوع الرئيسي الذي تمفصل حوله عمل الحزب (المظاهرات، إيفاد وفد عن أمهات الجنود وأرامل الحرب العالمية الأولى الى رئاسة الحكومة، الاضراب العام الاحتجاجي لمدة 24 ساعة ضد حرب المغرب) (97). حقيقة أنه بخصوص مسألة الريف، تم عرض نفس جدلية نمو الحركة الثورية التي عرضت بخصوص أحداث الصين والهند ومصر وسوريا. ولربما يكون الاستقرار الجزئي للرأسمالية العالمية والانتقال، في المغرب، من حقبة الاندفاع الثوري الى حقبة أكثر هدوءا قد فك وثاق القوى. فهذه الأخيرة عندما يلوح لها في الأفق خطر فقدان قاعدتها البالغة الأهمية ألا وهي المستعمرات، تضيق الخناق على الشعوب المستعمرة في الشرق. وهكذا تتحول حركات التحرير الى حرب مفتوحة ضد الامبريالية. ومع ذلك فإنه لا ينبغي أن نبالغ في إعطاء هذه الحرب محتوى ليس لها.

ويعود لشخص زينوفيف Zinogler (الشخصية المهمة في التراتبية البلشفية آنذاك) فضل إعطاء معركة الريفيين حجمها الحقيقي : فهذا القتال في حد ذاته لم يكن ذا أهمية كبيرة. غير أنه كان على الخصوص بمثابة إرهاص ينذر بأحداث بالغة الخطورة. فالتعقيدات الدولية الكامنة وراءه كانت تنبيء بحرب عالمية. وفي سياق هذه التكهنات يقف بعض المعلقين كثيرا عند مسألة قلب التوازن الحاصل في شمال أفريقيا بسبب توسيع فرنسا لمجال نفوذها على حساب إسبانيا، إذ تدفع هذه الأخيرة فرنسا وانجلترا وإيطاليا الى الشجار مباشرة، وتطرح

(96) نداء المكتب الشرقي للجنة المركزية للأممية الشيوعية.

(97) انظر على الخصوص

Charvin (R), Le parti communiste français face à la guerre du Rif, colloque sur Abdelkrim et la République de Rif, 1973, Maspéro; 1976, pp. 218-236. pp. 619—629.

انظر أيضا :

Irandoust: Le Rif, clé de la Méditerranée **La correspondance internationale,** n°83, 26 août 1925.

بحدة مشكلة جبل طارق وتركيا والسيادة على البحر الأبيض المتوسط (98). ومن السهل أن يؤدي التصعيد في صراع المصالح بين البلدان الامبريالية الذي تغذيه إسبانيا الى حرب عالمية جديدة (99).

ويدور مصنف جاكوب مونيتا Jacob Moneta «الحزب الشيوعي الفرنسي والمسألة الاستعمارية 1919 — 1962» (100) حول الفكرة القائلة بأن خضوع الحزب الشيوعي الفرنسي لمتطلبات السياسة الخارجية للاتحاد السوفياتي هو السبب الحاسم الذي جعل هذا الحزب يتخذ شيئا فشيئا، بخصوص المسألة الاستعمارية، مسارا جديدا يختلف عن الاتجاه الذي كان قد اختاره في البداية بنجاح. ومن اللحظات النموذجية في الاتجاه القديم تزعم النضال ضد حرب الريف.

= وفيما يتعلق بالدور الذي لعبه الريفيون في هذا التنافس الدولي، من المناسب أن نشير عرضا الى بعض مواطن اللبس. ففي إطار تسمية كتابات الأممية الثالثة قاطبة بحركة التحرير الوطني، حيث دجرنا على أن نرى فيها اليوم مرحلة تاريخية أمسك فيها المغاربة مصيرهم بأيديهم، كنا نتوقع أن يوصف المغاربة كأشخاص فاعلين حاذقين في التاريخ. إلا أنه، وياللمفارقة، اعتبر عبد الكريم في البداية كعميل فرنسي وجه ضد الاسبان، انظر :

Ali Kemal Fouladi: La guerre au Maroc, **La Correspondance Internationale,** n°61, p. 505.

وحينما تحول صراع الريف الى مواجهة مع فرنسا، اعتبر عبد الكريم كعميل انجليزي. انظر

R.A. «La défaite de Primo de Rivera au Maroc», **La Correspondance Internationale,** n°66, p. 714.

وفي الأخير، بعد استسلام عبد الكريم، وبخصوص المؤتمر الذي كان سيجمع الموقعين على العقد العام للجزيرة الخضراء، لم يتردد الاتحاد السوفياتي في المطالبة بحقه في المشاركة في المؤتمر المهيإ من طرف اسبانيا لا للتقرير في مصير قبائل المغرب الى جانب قطاع الطرق الرأسماليين، بل بالعكس، للدفاع عن مصالح هذه القبائل ضد الامبرياليين. انظر.

T.Taigin, Le gouvernement soviétiste et la question de Tanger, **La correspondance Internationale,** 1926, n 104, p. 1147. et de F.N. Le probléme de Tanger **La Correspondances Internationales** 1926, n°104, p. 1147. et de F.N Le probléme de Tanger, **La correspondance Internationale** 1926, n°102, p. 1128.

(99) تقدم عموما ثلاثة اعتبارات لاثبات حقيقة المخاطر التي لاتنطوي عليها الحرب الاستعمارية بالريف :

— فلقد أخذت حرب الريف أبعادا كبيرة جدا (سواء من حيث عدد الرجال المعبئين أو من حيث أهمية الوسائل المستعملة أو من حيث القوى المتورطة) بحيث أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تعتبر مجرد عملية بوليسية.

— كل الدلائل تشير إلى أن الحرب ستطول وأنها ستكون أشد فتكا، كما ستسفر عن نزاعا وتعقيدات جديدة (الوسائل التي يتوفر عليها الريفيون، مهارتهم، شجاعتهم، عددهم، وتصميمهم).

— وعلى أي، فإن المغرب يعد بؤرة تقليدية من بؤر التوتر وتهديد السلم.

(100) المرجع السابق (الهامش رقم 2 أعلاه)

والحقيقة أنه منذ بداية حرب الريف وتأثير السياسة الخارجية السوفياتية على الأممية الشيوعية ما فتىء يتزايد بقوة. فلقد تمت بالفعل آنذاك صياغة مذهب «الاشتراكية في بلد واحد». وفي نظر الأممية، تعتبر حرب الريف أول وضعية يخوض فيها بلد كبير حربا مهمة منذ 1918. ومن خلال الحزب الشيوعي الفرنسي، تضع حرب الريف الأممية على محك التجربة : «فموقف الجماهير من حرب المغرب من شأنه أن ينبيء بموقفها من حرب تشن ضد روسيا أو من حرب تدور رحاها بين الدول الامبريالية» (101).

وعلى الرغم من أن تعبئة الجهاز الشيوعي الفرنسي، من وجهة النظر هذه، تبدو في جزء كبير منها، مجرد مناورة لاختبار دواليب المنظمات المنضوية تحت لواء الأممية الشيوعية في أفق أحداث مستقبلية أشد خطورة كحرب تشن ضد الاتحاد السوفياتي البلد الاشتراكي الوحيد، فإن الدعم الشيوعي للريفيين دعم مثالي. فلهجة ومحتوى نصوص الأممية الثالثة تفند وتدحض، على أي حال، الافتراء القائل بأن شيوعيي أوروبا كانوا دائما استعماريين في الصميم. (102).

في كل مرة اهتمت فيها الماركسية بالمغرب، إلا وكان ذلك في لحظات حاسمة من تاريخه.

فلقد غطى كارل ماركس وفريدريك انجلز التطورات الرئيسية للحرب الاسبانية المغربية لسنة 1860. وهو الحدث الذي سجل الانضمام النهائي للمغرب الى حظيرة نفوذ أوروبا الرأسمالية. كما خصصت روزا لوكسمبورغ أيضا نصوصا سجالية «للقضية المغربية» لسنة 1911 عندما أرسل الرايخ الألماني، الحريص على حماية مصالحه المحلية، البارجة الحربية Panther الى ميناء أكادير. وأخيرا كان الكفاح التحرري الذي انطلق بالريف موضوع كتابات وتموقفات متعددة في إطار الأممية الثالثة.

وإذا كان من الواجب تسجيل أهمية اللحظة التي استقطب فيها المغرب اهتمام الماركسية (بسط الهيمنة الرأسمالية على المغرب بالنسبة لماركس، النزاع السابق لبسط الحماية

(101) انظر طروحات حول الحرب السالف الذكر.

(102) للاطلاع على جرد جامع لنصوص الأممية الثالثة حول المغرب، راجع :
Colloti Pischel (Enrico) et Robertazzi (Chiara7 : L'internationale communiste et les problèmes coloniaux 1919 —1935, Mouton, Paris-La Haye 1968.

بالنسبة لروزا لوكسمبورغ، انطلاق حركة التحرير الوطني بالريف بالنسبة للأممية الثالثة) فإنه تجدر الاشارة الى الأهمية النسبية لهذه النصوص. والواقع أن النصوص الواردة في هذا المصنف أبعد ما تكون عن تجسيد «اللحظات القوية» في التحليل الماركسي للاستعمار. فمقالات ماركس وانجلز، كما هو الشأن بالنسبة لمعظم انتاجهما الصحفي، تمليها، على ما يبدو، الحاجة الملحة الى كسب لقمة العيش. كما أن السجال الذي خاضته روزا لوكسمبورغ بخصوص ما سمي «بالأزمة المغربية» لم يكن يتوخى التعبير عن تضامنها مع المغرب أو حتى تحليل توسع الهيمنة الرأسمالية، بقدر ما كان يبتغي بالأساس نقد شوفينية القيادة الاشتراكية الديمقراطية الألمانية. أما فيما يخص المواقف المبدئية للأممية الثالثة وأجهزتها من حرب الريف، فإنها تستند الى تحليلات هزيلة المحتوى. وعموما، فإنها عناصر جواب جمعت دون طرح السؤال... ودون أن تكون لها كثافة التحليل الماركسي المعروف جيدا حول الهند والجزائر والصين...

إلا أن هذا في حد ذاته يثير التساءل، كما يسائل الفرضيات ومستشفات ما بين السطور وبعض الآراء المعبر عنها صراحة. فالظاهر أن مؤسسي الماركسية وورثتهم بقدر ما كانوا يحملون خطابا جديدا، كانوا أيضا أبناء عصرهم. ومن المؤكد أن بعض القراء لم يحتفظوا من هذه النصوص إلا بجهلها لمجتمعنا، وسوف يبرزون الأحكام المسبقة و«العنصرية المضمرة» التي تنطوي عليها.

والواقع أن مؤرخي الاشتراكية لم يتصوروا في أي لحظة من تاريخ الاشتراكية موقفا نهائيا موحدا وصحيحا سلفا، بل كل ما هنالك أنهم أبانوا عن ميل نحو اتخاذ مواقف معينة. وهكذا نقف منذ بداية الاشتراكية على نزعة معادية للاستعمار وأخرى تطمح الى توسع إنساني، وثالثة تبشر علنا بامبريالية اشتراكية (103). ولقد قام المؤلف بتصور هذه النزعات كنزعات ثابتة. ويبدو أنه في ما يتعلق بالماركسية على وجه الخصوص، يتعين تمحيص المحتوى الموضوعي للمسلسل التاريخي في كل مرحلة من مراحله لفهم دلالة تنويه ماركس وانجلز بالاستعمار بصفته عامل تقدم في التاريخ، واستيعاب تنديد روزا لوكسمبورغ بالاستعمار، وهو تنديد سياسي إلا أنه أبوي ويفتقد أفق التحرير الوطني للشعوب المستعمرة، ثم إدراك تطور الأممية الثالثة نحو اتجاه معاد للاستعمار نشط ومنطقي...

(103) انظر :
Histoire générale du socialisme, publiée sous la direction de Jacques Droz, t.2 (1875-1918),1974, p.16.

إن المواقف المتخذة من الاستعمار لا يمكن تقييمها إلا تبعا لتحليل المرحلة التي برزت فيها. فلا وجود لموقف صحيح جوهرا في هذا الباب. وإنه لمن السهل اليسير، اليوم، في هذه الحقبة التي شهدت ثورة الصين والفيتنام والتنامي العام لحركات التحرير الوطني ونجاحها...أن نبرز قصور التحليل الماركسي للاستعمار وأن نسجل تناقضته وعقدته الأوروومركزية (104).

وتجدر الاشارة الى أن جمع النصوص الماركسية المتعلقة بالمغرب لا يمكن أن يكون عملا حاسما. فمن الواضح أنه لا يسمح بالتدخل المباشر والفعال في التاريخ الفوري.

ويبدو أن الرهان النظري نفسه هزيل : فلا نرى كيف يمكن للأفكار الأولية التي صاغها حول المغرب كل من ماركس وانجلز وروزا لوكسمبوغ ومسؤولو ومدونو الأممية الثالثة، أن تساهم في معرفة أحسن بالمجتمع المغربي. وإذا كانت هذه المهمة غير حاسمة فإنها ضرورية مع ذلك، لأننا، بادىء ذي بدء، حينما نجرد حصيلة مواقف اليسار الأوروبي من المشاكل المغربية، لا يمكننا أن نتجاهل أنها مواقف لاترجع فقط الى فترة التموقفات من مسألة استقلالنا السياسي في الخمسينات. فالمسألة المغربية كانت دائما حاضرة كإحدى المشاغل الاشتراكية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وفي المقام الثاني، نرى بأن كل توظيف للفكر الماركسي في واقعنا يفترض البحث عن أصول المفاهيم والصور التي استخدمها هذا الفكر لفهمنا والتي قد تندس في لا وعي أقوالنا وقد توجه ممارساتنا. وبشكل أوضح، فإن مشروع المعرفة العلمية لمجتمعنا يفرض علينا أن نختبر الماركسية بصفتها أداة تحليله المفضلة، من خلال الأهمية التي أفردتها لنا.

ولا شك أن هناك نوع من التعسف في تجميع النصوص المتعلقة كليا بالمغرب كما هو الشأن بالنسبة للجزائر والهند والصين... في حين أن هذه النصوص لا يكون لها معنى إلا بالرجوع الى مجموع النصوص الماركسية المتعلقة بالعالم غير الأوروبي. وبالفعل، يبدو أن نظرة مؤسسي الماركسية ومن تبعهم لا تنتبه كثيرا للخصوصيات الكامنة في المجتمعات المدرجة في الصنف العام للمجتمعات الأسيوية. وهذا الاغفال نفسه يتطلب القيام بسبراغوار تاريخ الاهتمام الماركسي بالمغرب ووضع أسس جانب آخر من مسألة الخصوصية الدائعة الصيت

(104) انظر :

Molmar (Miklos) et Witzig (carole) : L'influence de la mentalité colonialiste britanique sur le concept asiatique de Marx, Relations internationales, Genéve-Paris, 1974, pp. 37-65.

انطلاقا من هذا التاريخ. والمجازفة كبيرة من أن يؤدي هذا السبر إلى الوقوف على تاريخ إغفال. وهذا أمر لا يفاجىء أحدا، إذا كان من الثابث أن لا وجود لحقائق من صنف خاص وأن الخصوصية، وهي وهم وشعر، لم تعد لها في عصر الرأسمال تلك الأولوية في هذا الباب.

وفي هذا الأفق، يمكن للنصوص المقدمة في هذا الكتاب أن تشكل أول مدخل للتاريخ العام لنمو النظرة الماركسية للتشكيلة الاقتصادية والاجتماعية المغربية.

عبد الله ساعف

النصـــوص

نشرت نصوص ماركس وانجلز باللغة الألمانية في Dietez Verlag; Berlin «Werke» وباللغة الانجليزية في «Revolution in Spain» (International Publishers, New York 1939,255 p) وإستنادا إلى نسخة إسبانية، نشرت ترجمة عربية معيبة في المناهل Gasarmeltr Werke (17، مارس 1980 و18، يوليوز 1980).

ولم تنشر أعمال روزا لوكسمبورغ بشكل كامل سواء باللغة الألمانية (ذلك أن مشروع Gesammelte Werke—Adolf Warski وClaraZetkin لم يتمم) أو بأية لغة أخرى. وبقيت كتاباتها مبعثرة في أغلبها في العديد من المجلات والمنشورات. وأحيانا يعود تاريخ نشرها الوحيد الى الفترة التى كتبت فيها من طرف كاتبتها، كما هو الأمر بالنسبة للنصوص المتعلقة بالمغرب.

ووجود نصوص الأممية الثالثة شيء معروف بشكل أكبر. إلا أن الحصول عليها ليس دائما في المتناول. فلقد نشر Paul Semard (حرب الريف، انظر الصفحات الموالية) وJacob Moneta (سياسة الحزب الشيوعي الفرنسي بخصوص المسألة الاستعمارية 1920 — 1963) بعض الوثائق المتعلقة أساسا بعمل الحزب الشيوعي الفرنسي المناهض لحرب الريف.

I

ماركس وانجلز والحرب الاسبانية المغربية لسنة 1859 — 1860

1 ف. انجلز : مجريات الحرب ضد المغاربة

طالما انتظرنا تحرك الجيش الاسباني بالمغرب، وهو تحرك من شأنه أن يضع حدا للمرحلة الأولى أو على الأصح، للمرحة التمهيدية من الحرب. لكن دون جدوى. فلا يبدو أن المارشال أودونيل O'Donnell يستعجل مغادرة معسكره في مرتفعات سيرالو Serrallo، الشيء الذي لو تم لا ضطررنا الى دراسة عملياته وهي لازالت في بدايتها (1).

ففي يوم 13 نونبر، أبحرت الفرقة الاولى من الجيش الاسباني تحت قيادة الجنرال ايشاك Echague (2) من ميناء الجزيرة الخضراء، ورست بعد أيام قلائل. وفي يوم 17، غادرت المدينة واحتلت سيرالو أو الدار البيضاء وَهي عبارة عن بناية كبيرة واقعة على بعد ميل ونصف من سبتة. والميدان في الضواحي جبلي ووعر يساعد على نصب الكمائن وعلى حرب العصابات. ولقد انسحب المغاربة بعد أن حاولوا عبثا في تلك الليلة استرجاع سيرالو. وشرع الاسبان في اقامة معسكر محصن لاستخدامه كقاعدة للعمليات فيما بعد. وفي يوم 22، تعرض سيرالو

(1) الواقع أنه منذ إعلان الحرب، يوم 22 أكتوبر 1809، والاسبانيون يحشدون قواتهم. ولا يمكن اعتبار المعارك التي دارت قرب سبتة، من 19 نونبر 1809 الى غاية فاتح يناير 1860، بمثابة عمليات حربية بالمعنى الدقيق للكلمة. وهذا المقال المنشور يوم 19 يناير 1860 لا يأخذ بعين الاعتبار كون الاسبان قد بدأوا زحفهم يوم الفاتح من يناير.

(2) بخصوص تكوين الحملة العسكرية (أودنيل، ايشاك، زابالا، بريم، روس دى أولانو...) انظر المعلومات الواردة في
Joly (A), Tétouan, **Les archives marocaines**, vol. 5,1905, pp. 378 et s.

إذ نجد فيه تقديما جيدا للمراحل الرئيسية من العمليات كما هو الأمر بالنسبة لكتاب
Chauchar, **Espagne et Maroc : Compagne de 1859-1860**, Paris, 1862, 425p.

لهجوم أهل اللانجرة وهم قبائل مغربية تعيش في نواحي سبتة. وكان هذا الاشتباك أول معركة من سلسلة من المعارك المتعثرة، وهي سلسلة متشابهة الحلقات تختزل الى يومنا هذا كل هذه الحملة. فلقد هاجم المغاربة الخطوط الاسبانية بقوة كبيرة الى حد ما، وحاولوا باستخدام الحيلة وعنصر المفاجأة مراقبتها جزئيا. واذا ما صدقنا البلاغات المغربية، فانهم ينجحون في ذلك، لكنهم يضطرون الى مغادرة المعاقل لانعدام المدفعية. واستنادا الى الاسبانيين، فانه لم يسبق لاي مغربي أن ولج المعاقل الاسبانية، وأن هجوماتهم تذهب سدى. ففي أول هجوم لهم، لم يزد عدد الرجال الذين دفع بهم أهل اللانجرة الى المعركة عن 1600 رجل. وفي اليوم التالي، وصلتهم تعزيزات بلغت 4000 رجل وجاءوا على للتو للهجوم، (3). وفي يومي 22 و 23، جرى تبادل اطلاق النار. غير أنه يوم 25، تقدم المغاربة بكامل قواتهم، وجرى قتال عنيف جرح على اثره الجنرال ايشاك في يده. والواقع أن هجوم المغاربة كان من القوة بحيث أنه كدر الهدوء الذي طبع به المارشال أودونيل مجرى الحرب حتى ذلك الحين. وهكذا أمر فورا الفرقة الثانية بقيادة الجنرال زابالا Zabala والفرقة الاحتياطية بقيادة الجنرال بريم Prim بالابحار، وحل بنفسه في سبتة. وفي ليلة 27، تجمعت كل جيوش الاسبان في هذا المكان. وفي يوم 29، شهدنا هجوما مغربيا، وتكرر يوم 30. وبعد هذا، بدأ الاسبان يفكرون في وضعية الحصار التي هم فيها، فجعلوا هدف أول تحرك لهم تطوان، وهي مدينة تقع على بعد عشرين ميلا من جنوب سبتة وعلى بعد أربعة أميال من الساحل. وبدأوا يشقون طريقهم نحو هذه المدنية. والى غاية 9 دجنبر، لم يبد المغاربة أية مقاومة. وصباح ذلك اليوم، باغتوا حاميات المعقلين الرئيسيين. وجريا على عادتهم، غادروهما في آخر النهار. وفي يوم 12، وقع اشتباك آخر أمام المعسكر الاسباني على بعد أربعة أميال. وفي يوم 20، أبرق أدونيل مخبرا بأن المغاربة قد هاجموا مرة أخرى المعقلين، وهزموا كالعادة هزيمة نكراء. وهكذا فالوضعية يوم 20 دجنبر لم تتغير قيد أنملة عما كانت عليه يوم 20 نونبر. فالاسبان لا زالوا يلتزمون وضعية دفاعية. وبالرغم مما تقوله بلاغاتهم الصادرة منذ أسبوعين أو ثلاثة، فانه ليس هناك أي مؤشر على التقدم.

لقد تلقى الاسبان يوم 4 دجنبر تعزيزات أخرى وأصبحوا أقوياء بجيش قوامه 35000 الى 40.000 رجل. وهكذا اذن يوجد 30.000 رجل رهن الاشارة للمشاركة في عمليات هجومية. فبقوات كهذه يتعين أن يكون فتح تطوان أمرا هينا. ومما لاشك فيه أن الطرق منعدمة، وأن تموين الجيش الزاحف لا يمكن أن يتم الا انطلاقا من سبتة. لكن كيف تصرف

(3) بلغت القوات المغربية النظامية منها واللانظامية بالكاد 15000 رجل. وعلى الرغم من أنها تعززت فيما بعد فإنها لم تصل الى مستوى ما حشدته قبيلة جزائرية واحدة أثناء استعمار الجزائر. انظر مقال Joly السالف الذكر، ص 376.

الفرنسيون في الجزائر والانجليز في الهند ؟ (4) هذا، دون أن نأخذ بعين الاعتبار أن البغال الاسبانية وخيول السحب لم تكن مدللة بطرق جيدة في بلدها الاصلي حتى ترفض السير في أرض المغاربة اليوم. ورغم ما يمكن أن يقوله أودونيل للدفاع عن نفسه، فلن يشفع له في هذا الجمود الطويل. فالاسبان اليوم في عز قوتهم، ولا يمكنهم أن يتمنوا بلوغ قوة أكبر اللهم الا اذا حدثت تقلبات غير متوقعة تتطلب جهودا استثنائية. في حين أن المغاربة يزدادون قوة يوما عن يوم. فمعسكر تطوان بقيادة الحاج عبد السلام الذي يشكل الجزء الاهم من الجنود الذين يهاجمون حتى الآن الخطوط الاسبانية، قد وصل عدد أفراده الى 10.000 رجل زيادة على حامية المدينة. ويتلقى معسكر آخر أقيم في طنجة تحت قيادة مولاي عباس تعزيزات قادمة من الداخل. فهذا الاعتبار وحده كان من شأنه أن يحث أودونيل على التقدم مادام الوقت يسمح بذلك. غير أنه لم يفعل. وهذا دليل، دون شك، على التردد العميق، واشارة تدل على أنه وجد في المغاربة خصوما أعظم شأنا مما كان يتوقع. والواقع أن هؤلاء يقاتلون بشكل جيد للغاية. والدليل على ذلك كثافة الشكاوي الصادرة من صفوف الاسبان بخصوص التفوق الذي يمكنهم منه الميدان بنواحي سبتة.

ويتميز المغاربة، استنادا الى أقوال الاسبان، بخطورة بالغة في الوديان وغابات الاشواك، ناهيك عن كونهم يعرفون الميدان شبرا شبرا. لكن الاسبان يدعون أنه ما أن ننزل الى السهل حتى يجبر تماسك المشاة القوات المغربية اللانظامية على المواجهة والتراجع. وهذه حجة مشكوك فيها على اعتبار أن ثلاثة أرباع الوقت المقضى في القتال كان عبارة عن مناوشات في منطقة جبلية. واذا كان الاسبان لم يتعلموا كيف يتعرفون على الميدان بعد توقف دام ستة أسابيع أمام سبتة فالذنب ذنبهم. فمن البديهي أن المنطقة الجبلية تلائم رجال المقاومة أكثر من السهل. لكن، حتى في المنطقة الجبلية يتعين على المشاة النظاميين أن يتفوقوا على العصابات اللانظامية. فالحرب الحديثة بدعاماتها وتعزيزاتها خلف الخطوط المنتشرة ودقة تحركاتها والمراقبة الفعالة للجنود والمساندة المتبادلة فيما بينهم للتقدم بانسجام نحو نفس الهدف، كل هذا يخول للجنود النظاميين تفوقا بينا على العصابات اللانظامية بحيث أنه حتى في الميدان الأكثر ملاءمة لنصب الكمائن، لا يمكن لأي مقاتل لانظامي أن يواجههم حتى ولو كان الفارق

(4) انظر النصوص المتعلقة بالهند في

Texte sur le colonialisme: Editions du Progrés, p.431.

وانظر على سبيل المثال المقال المتعلق بتفاصيل هجوم Lucknouw الصفحات 200 وما يليها. وانظر أيضا.

First Indian War or Independance 1857 — 1859, Foreign language Publishing; Moscow; Lawrence and Wishart, London 1960, 246 p.

بنسبة اثنين الى واحد. غير أنه هنا بسبتة الأمر معكوس رأسا على عقب. فعلى الرغم من التفوق العددي للاسبان، فانهم لا يجرؤون على التقدم الى الأمام.

إن الخلاصة الوحيدة التي يمكن استنتاجها هو أن الجيش الاسباني ليست له أية تجربة في حرب العصابات، وأن هذا النقص في هذا النوع من القتال يوازي المزايا التي يخولها له الانضباط والتدريب العسكري المنتظم. ويبدو، عمليا، أن هناك نسبة غير معتادة من الاشتباكات رأسا لرأس باليقطان والحراب. فعندما تقترب الصفوف الاسبانية بما فيه الكفاية، يتوقف المغاربة عن اطلاق النار، وينقضون عليهم بالخناجر كما يفعل الاتراك، وهذا ما لا يلائم المجندين الاسبان الجدد. ومع ذلك، فقد وقعت اشتباكات عديدة كان من شأنها أن تعودهم على خصوصيات قتال المغاربة وتلقنهم الطريقة المثلى للرد عليه. وحينما نرى القائد يتردد دائما ويلتزم وضعا دفاعيا، فانه لا يمكننا أن نكن تقديرا كبيرا للجيش الاسباني. فخطة الحملة الاسبانية كما يستنتج من الوقائع المذكورة أعلاه تنص في المقام الاول على جعل سبتة قاعدة للعمليات ومهاجمة تطوان كأول هدف.

وهذا الجزء من المغرب يقابل مباشرة الساحل الاسباني، ويشكل شبه جزيرة عرضها 30 أو 40 ميلا وطولها 30 ميلا. وتعد طنجة وسبتة وتطوان والعرائش المدن الاربعة الرئيسية. وباحتلال هذه المدن الاربعة، التي تسيطر اسبانيا منها على سبتة فقط، سيتأتى اخضاع شبه الجزيرة بسهولة. وستصبح هذه الاخيرة قاعدة للعمليات المقبلة في اتجاه فاس ومكناس. فالظاهر اذن أن هدف الاسبان هو فتح شبه الجزيرة وما احتلال تطوان إلا مرحلة أولى منه ويبدو أن هذه الخطة رشيدة، إذ تحصر العمليات في منطقة محدودة وغير بعيدة ويحيط بها البحر من ثلاث جهات، وفي الجهة الرابعة هناك وادان (تطوان وتوكوس). فمن السهل غزوها بالمقارنة مع جنوب البلاد، دون أن يتطلب الامر التوغل في الصحراء، وهو ما لا مناص منه لو اختيرت الصويرة أو الرباط كقاعدة للعميات.

2 ف. انجلز : الحرب ضد المغاربة (5)

وأخيرا بدأت الحملة بالمغرب حقا. ومع هذه البداية، اختفت تلك التصريحات الرومانسية التي أحاطت بها الصحافة والحماس الشعبي الاسبانيين أودونيل المنكمش الى

(5) دام زحف الاسبان على تطوان من فاتح يناير الى السادس من فبراير 1860، وسار محاديا للشاطىء انطلاقا من سبتة وحتى مصب مارتين. وبعد حشد الجند، دخل الجيش الى تطوان يوم 7 فبراير. وهذا المقال المؤرخ بيوم 8 فبراير 1970 (تاريخ النشر)، حرر قبل أن يبلغ على علم انجلز دخول الجيوش الاسبانية الى المدينة. وبقي الجيش بها الى غاية 22 مارس 1860.

مستوى جنرال متوسط (6). فعوض فرسان قشتالة وليون، لدينا خيالة الاميرة. وعوض سيوف طليطلة، تقوم المدافع المضلعة والطلقات الاسطوانية المخروطة بعملها.

وقرابة العشرين من دجنبر، شرع الاسبان في شق طريق لتسلكها المدفعية والعربات. ومن المفروض أن يمر هذا الطريق عبر منطقة من التلال بجنوب المعسكر المقابل لسبتة. ولم يحاول المغاربة أبدا تدميرها. الا أنهم تارة يهاجمون الجنرال بريم الذي تقوم فرقته بحماية العناصر المشتغلة بشق الطريق، وتارة أخرى يهاجمون المعسكر. لكنهم دائما يخفقون. ولم يأخذ أي من هذه الاشتباكات حجما أكبر من حجم المناوشات التي تقع في المقدمة. فأخطرها حدث يوم 27 دجنبر، ولم تتعد خسائر الاسبان ستة قتلى وثلاثين جريحا. وقبل نهاية السنة، تم انجاز الطريق التي لم يكن يتعدى طولها ميلين. غير أن عاصفة من الاعاصير والامطار حالت دون تقدم الجيش. وفي نفس الوقت، قام سرب اسباني مكون من سفينة شراعية وثلاث سفن حربية مروحية وثلاث بواخر وما مجموعه 246 مدفعا، بالتوغل في مصب وادي تطوان. وقصف يوم 29 التحصينات الموجودة بالمدينة، وكأنه بذلك يريد أن يخطر المعسكر المغربي بتحركات الجيش الوشيكة. وحينما سكتت المدافع، جاء دور القوات البرية في القيام بالتدمير وذلك طيلة ثلاث ساعات. وللتذكير فان الامر يتعلق بنفس المنشآت التي قام الفرنسيون بقصفها قبل حوالي الشهر وبقوات أقل بكثير (7).

وحين تحسنت أحوال الطقس يوم 29، تحرك الجيش الاسباني أخيرا يوم فاتح يناير. وكان الفيلق الاول يتكون من فرقتين يرأسهما ايشاك. والفرقة الاولى التي رست بأفريقيا بقيت داخل الخطوط قبالة سبتة. وعلى الرغم من أن هذا الفيلق عانى كثيرا من الامراض خلال الاسابيع الاولى، فانه استطاع أن يتأقلم وأصبح بعد وصول التعزيزات يصل قواته الى 10.000 رجل، أي ما يفوق بكثير عدد الفيلقين الثاني والثالث من الجيش. وهذان الاخيران اللذان يقودهما على التوالي زابالا وروس دي أولانو Ros De Olano انضافا الى فرقة بريم الاحتياطية. فتراوح عددهم ما بين 21.000 و 22.000 رجل. وبدأوا زحفهم في اليوم

(6) لقد وصف المؤرخون الحماس الذي تلقى به الاسبان إعلان الحرب والتبجيل الذي أحاطوا به أودونيل على الأخص. انظر بهذا الصدد

Miège (J.L) **Le Maroc et l'Europe**, 1830-1894, t.2; (l'ouverture), P.U.F. 1961, pp. 364- 365.

وانظر أيضا مقال Joly (A) السالف الذكر، الصفحات 342 — 348.

(7) وفي شهر نونبر 1809، قامت سفن حربية فرنسية بقنبلة الحصن المغربي الحامي لمدخل واد تطوان، ردا على طلقات نارية أصابت سفينة فرنسية، انظر

Gibraltar Chronicle du 28 novembre 1859.

الاول من السنة الجديدة. وكان كل رجل منهم يحمل زاد ستة أيام، في حين تم شحن مليون حصة زاد لترافق الجيش في حله وترحاله وهو ما يماثل مؤونة شهر كامل. وتم اجتياز التلال الواقعة الى جنوب سبتة. وكان في المقدمة بريم مدعما بزابالا وروس دي أولانو في المؤخرة. وكان الطريق الجديد يؤدي الى البحر الابيض المتوسط على بعد ميلين من المعسكر. وهناك ينبسط سهل نصف دائري يحفه البحر من الجانب المقوس ويتكون بالداخل من منطقة وعرة ترتفع تدريجيا في شكل جبال. وما ان غادرت فرقة بريم المعسكر حتى بدأت المناوشات مرة أخرى. غير أن فرقة المشاة الاسبانية الخفيفة استطاعت أن تدحر المغاربة بسهولة نحو السهل، ومن هناك نحو التلال والغابات الشوكية التي تحادي خط زحفهم. وهنا استدرج سربان ضعيفان من خيالة الاميرة للهجوم، ففعلا بشكل جعلهما يقتحمان في خط مستقيم صفوف المغاربة ويجدان نفسيهما داخل معسكر العدو. وهكذا تورطا في منطقة جبلية ليس فيها أي مكان صالح لهجوم الفرسان أو المشاة. واضطرا الى التراجع تاركين وراءهما سبعة قتلى، أي كل ضباطهما تقريبا بالاضافة الى بعض الجنود. والى هنا، فان القتال تم أساسا على يد المشاة وقطعة أو قطعتين من مدفعية الجبال، مدعمة هنا وهناك بطلقات مدافع بعض السفن والزوارق المسلحة محدثة أثرا معنويا أكثر منه ماديا. ويبدو أن أودونيل يعتزم التوقف في السهل دون أن يحتل على الدوام، في الوقت الراهن، خط القمم الجبلية التي تشكل الحد الجنوبي للسهل.

ومع ذلك، وسعيا منه الى ضمان أمن مواقعه ليلا، أصدر أمره الى بريم لازاحة المقاتلين المغاربة عن السفوح الجنوبية لهذه المرتفعات والتراجع عند الغروب. الا أن بريم الذي يعد أكبر مقاتل في الجيش الاسباني، تورط في اشتباك خطير انتهى باحتلال ذروة المرتفعات. فأقام بها خندقا مرتجلا. وفي ذلك اليوم ارتفعت الخسائر الاسبانية الى 73 قتيلا و 481 جريحا.

ويعرف الموقع الذي احتل ذلك اليوم باسم الفنيدق Castillejo وهو عبارة عن بنايتين مطليتين بطلاء أبيض، أولاهما تقع في المنحدر الداخلي قرب السهل، والثانية تقع في القمة التي احتلها بريم بعد الزوال. واعطيت تسمية رسمية لهذا الموقع وهي Coparmento de la Condesa وفي نفس اليوم حاول المغاربة صرف أنظار الاسبان عن المعسكر الواقع على مشارف سبتة وذلك بالهجوم على المعقل الواقع في أقصى اليمين وعلى المسافة الموجودة بين المعقلين الواقعين في أقصى اليسار. الا أن المشاة الاحتياطيين ونيران المدفعية صدتهم بسهولة.

وأقام الجيش ثلاثة أيام بمعسكر الكونديسا. ثم وصلت الى المعسكر مدفعية الحملة وبطارية القذائف وكذا بقية الفرسان (يتكون مجموع لواء الفرسان من ثمانية أسراب من الخيالة، وأربعة أسراب من رجال المدرعات دون مدرعات وأربعة أسراب من الرماة ويبلغ

مجموعهم جميعا 1200 رجل). ولم يبق في الخلف الا معدات المؤخرة (وتتكون من بطاريات المدافع المضلعة التي بامكانها أن ترسل قذائف تزن ستة كيلوغرامات). وفي يوم 3، شرع أودونيل في عمليات الإستطلاع في اتجاه مونتي نيكرو، وهي سلسلة من الجبال المتاخمة جنوبا. وكان الطقس جميلا، حارا في منتصف النهار مع سقوط ندى كثيف بالليل. وكانت الكوليرا ما تزال متفشية في صفوف فرقة أو فرقتين من الجيش. كما عانت بشدة بعض الفيالق من هذا الداء. فعلى سبيل المثال،قلص عدد أفراد كتيبتي المهندسين اللتان تفاقم فيهما المرض على وجه الخصوص، من 135 الى 90 رجلا في كل سرية.

والى هذا الحد، فاننا نتوفر على تقارير مفصلة بصدده. أما ما لحق من عمليات، فاننا اقتصرنا فيه على برقيات هزيلة ومتقلبة نسبيا. ففي يوم 5، تقدم الجيش، ويوم 6 عسكر شمال وادي نيكرو بعد أن اجتاز المضايق دون أن تعترض طريقه أية مقاومة. واذا كان هذا يعني بأن ذروة مونتي نيكرو قد اجتيزت وأن الجيش يعسكر في السفح الجنوبي، فإن هذا الامر تحوم حوله الشكوك. وفي يوم 9، روي لنا أن الجيش يوجد على بعد فرسخ (أربع كيلومترات تقريبا) من تطوان، وأن هجوما للمغاربة تم احباطه. ويوم 13، سقطت كل مواقع كابونيكرو، وتم احراز نصر مبين، في حين وصل الجيش الى مشارف تطوان. وما ان يتم استقدام المدفعية حتى تنبري بمهاجمة المدينة. ويوم 14، رست بمصب نهر تطوان فرقة الجنرال ريوس Rios معززة بعشرة كتيبات كانت متمركزة أصلا في مالقة، ثم احتلت التحصينات التي سبق للاسطول أن حطمها منذ ما يربو على خمسة عشر يوما. ويوم 16، علمنا أن الجيش على وشك عبور النهر ومهاجمة تطوان.

ولتفسير ما سبق، يمكننا أن نلاحظ وجود أربعة سلاسل متميزة من التلال ما بين سبتة وتطوان يتعين اجتيازها. فالسلسلة الاولى توجد مباشرة الى جنوب معسكر الجيش، وتؤدي الى سهل الفنيدق. والثانية تغلق هذا السهل من الجنوب. ولقد احتل الاسبان هاتين السلسلتين في اليوم الاول من الشهر. وبعيدا الى الجنوب، وبشكل عمودي الى ساحل البحر الابيض المتوسط، توجد ذروة مونتي نيكرو. ثم تأتي بشكل موازي وشيئا ما الى الجنوب سلسلة أخرى أكثر ارتفاعا تنتهي على الساحل في معسكر يسمى كابو نيكرو حيث تجري جنوبه مياه وادي تطوان. فبعد أن اشتبك المغاربة مع جناح جيش الغزاة طيلة اليوم الاول من الشهر، غيروا تكتيكهم وابتعدوا قليلا الى الجنوب وحاولوا أن يقطعوا طريق تطوان. وكنا ننتظر أن تقع المعركة الحاسمة من أجل السيطرة على هذا الطريق في الممرات الجبلية للسلسلة الأخيرة. ويبدو أن هذا ما حدث بالفعل يوم 13.

ولا يبدو أن التدابير التكتيكية لهذه المعارك لدى الطرفين قابلة للتصديق. فمن جانب المغاربة، لا يمكن أن نتوقع شيئا آخر غير القيام بقتال غير منتظم بشجاعة وحيل أنصاف المتوحشين. وحتى في هذا الباب ليس لهم باع طويل. فلا يبدو أنهم على قدر من التعصب والحمية كتلك التي واجه بها قبائليو Kabyles الجبال الساحلية الجزائرية أو قبائليو الريف الفرنسيين (8). ويبدو وكأنما معارك المناوشات الطويلة والعبثية قد فتت في عضد أغلبية القبائل. ومرة أخرى، فإنهم لا يتبعون مثال الجزائريين فيما يتعلق بطرقهم الاستراتيجية. فبعد اليوم الأول، تخلوا عن خطتهم الخاصة والتي كانت تتمثل في مناوشة جناح ومؤخرة الطابور الزاحف وقطع أو تهديد مواصلاته بسبتة. وبدلا من ذلك، سعوا جاهدين الى استباق الاسبان وسد طريق تطوان أمامهم، متسببين في ما كان يتعين عليهم تجنبه ألا وهو : معركة المواجهة المخططة (9). فهل يا ترى سيمهلهم الزمن حتى يتبينوا بأنه برجال كرجالهم وفي بلد كبلدهم، تعد حرب العصابات هي الوسيلة المناسبة لاستنزاف عدو يعاني ضيقا كبيرا في تحركاته بسبب العراقيل الضخمة التي لم يكن على دراية بها والتي يصعب تجاوزها في بلد قاحل يفتقر الى الطرق، وذلك كيفما كان تفوقه في الانضباط والتسليح.

(8) مرة أخرى، تبرز في الواجهة كلمة «التعصب» fanatisme كما هو الأمر في المثال الجزائري. وتؤكد الأبحاث المتوفرة بين أيدينا اليوم أن كفاح المغاربة أثناء القرن التاسع عشر لم يكن مجرد قلاقل دينية أخذت بعد كفاح وطني، انظر التأملات الفضفاضة للسيد حاجي محمد في مقاله.

«L'idée de nation au Maroc et quelques uns de ses aspects aux XVème et XVIIème siècles» dans **Hespéris Tamuda**; 1968; vol. IX, fasc I. pp. 109-121.

وانظر أيضا مداخلة جرمان عياش حول :

le sentiment national dans le Maroc du XIXe siécle, dans **Etudes d'histoire marocaines,** SMER, Rabat, 1979, pp. 177-178.

وانظر على الخصوص :

Laroui (A), **Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain** 1830—1912 Maspèro, 1977, 481 p.

(9) أخذت المقاومة الجزائرية شكل حرب العصابات. غير أن تحت قيادة عبد القادر، كان هناك تنسيق من 1839 الى 1844. أي أنها لم تكن فقط مجرد حرب مناوشات. انظر

Galissot/Badia, **Marxisme et Algérie,** U,G,E., 10/18, 1976, p. 55).

والخطأ الذي ارتكبه المغاربة في رأي انجلز، هو قبولهم حرب المواجهة في ميدان مكشوف، الشيء الذي سهل مأمورية المدفعية الاسبانية. وينضم هذا الرأي الى الرأي الشائع عموما لدى المؤرخين والقائل بأن حرب العصابات لم تستعمل بشكل واسع من طرف القيادة المغربية. انظر

Laroui (A), **Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain;** 1830—1912 «François Maspéro, (textes à l'appui), 1977, p.279.

وتكشف كتابات تلك الفترة (م.س.ذ. ص 272 وما يليها) عن هاجس إنشاء جيش على الطراز الغربي الذي أثبت فعاليته في الجزائر وفي ايسلي بالنسبة للمغاربة.

لقد استمر الاسبان كما بدأوا بعد شهرين من الجمود بسبتة. وقطعوا مسافة 21 ميلا في ظرف 16 يوما، وكانوا يتقدمون بمعدل خمسة أميال كل أربعة أيام. وحتى لو أخذنا بعين الاعتبار عدم صلاحية الطرق، فإن هذا يمثل، مع ذلك، درجة بطء لم يسبق لها مثيل حتى الآن في الحرب الحديثة. فعادة قيام فيالق الجيش الكبرى بالمناورة واعداد عمليات واسعة وتحريك جيش لا يكاد يتعدى من حيث قوته فيلقا واحدا في الجيش الفرنسي أثناء حملته الاخيرة على ايطاليا، كل هذه الاشياء يجهل عنها الجنرالات الاسبان، على ما يبدو، كل شيء تقريبا. فبأي شيء يمكن تفسير هذا التأخير ؟ ففي يوم 2، كانت مدفعية أودونيل بالفنيدق. وباستثناء معدات المؤخرة، فانه انتظر مع ذلك يومين أو أكثر، ولم يتقدم الا يوم 5.

ويبدو أن زحف الطابور نفسه كان منتظما للغاية. غير أنه في الزحف القصير لا يمكنه أن يكون الا كذلك. وتحت طلقات النيران، بدا ان الاسبان يقاتلون عدوهم بازدراء ما فتىء يغذيه انضباطهم العالي وسلسلة الانتصارات المحرز عليها في القتال. لكن يبقى أن نرى عما اذا كانت هذه الثقة في النصر ستصمد عندما يخلص هذا القتال حتما الى حرب عصابات منهكة، مستغلة أحوال الطقس وتسرب العياء الى الحملة لتجهز على الجيش ماديا ومعنويا. أما بخصوص القيادة، فليس بامكاننا، حتى الآن، أن نقول عنها الشيء الكثير. فتفاصيل المعارك، عدا المعركة الاولى، غير كافية. وتبرز لنا المعركة الاولى هفوتين بينتين وهما : هجوم الفرسان وتقدم الجنرال بريم الى ما وراء الحدود التي عينتها له الأوامر التي تلقاها. واذا ما تكررت مثل هذه الأمور بانتظام، فلن تجر على الجيش الاسباني الا ما لا تحمد عقباه.

ومن المحتمل ألا يطول الدفاع عن تطوان. لكنه سيكون دفاعا مستميتا. فالمنشآت الدفاعية سيئة للغاية دون شك. الا أن المغاربة مقاتلون ممتازون وراء الأسوار كما ثبت ذلك في قسطنطينة وفي المدن الجزائرية الاخرى. ولا شك أن المراسلة القادمة سوف تأتي بأخبار اقتحامها. واذا ما تم ذلك بالفعل، فانه يمكن أن نتوقع فترة استراحة في الحملة، لأن الاسبان سيكونون بحاجة الى وقت لتحسين الطريق الرابطة بين سبتة وتطوان بغية جعل هذه الاخيرة قاعدة ثانية للعمليات وانتظار تعزيزات جديدة. ومن هنا سيكون التحرك القادم في اتجاه العرائش أو طنجة.

وعلاوة على هذا، فان هذا الامر يقرب مسرح العمليات من الحدود الاسبانية التي لا يفصلها عن المغرب الا مضيق جبل طارق. لكن كيفما كانت مزايا هذه الخطة، فانها تفقد أهميتها اذا تموطل في تنفيذها. واذا تمادى أودونيل في موقفه، فانه سيجر على نفسه الخزي والعار وسيلطخ سمعة الجيش الاسباني وذلك على الرغم من البلاغات الحربية الطنانة.

3 ف. انجلز : الحرب ضد المغاربة (تتمة)

كما فعلنا في البداية، وفي الوقت الذي يحتمل أن تنجز فيه آخر عملية في الحرب الاسبانية بالمغرب، وبما أننا قد توصلنا بالتقارير الرسمية، فان بامكاننا، مرة أخرى، أن نعود للتطرق للموضوع (10).

ففي الفاتح من يناير غادر الجيش الاسباني خطوط سبتة بنية الزحف على مدينة تطوان الواقعة على بعد 21 ميلا فقط. وعلى الرغم من أن العدو لم يهاجمه في أية لحظة من اللحظات ولم يحاول صده، فان الامر تطلب من المارشال أودونيل شهرا كاملا ليصل بجنده الى مشارف هذه المدينة. ولا يمكن اعتبار انعدام الطرق والتزام الحيطة الضرورية دافعين كافيين لتبرير الزحف ببطء قل نظيره. فمن الواضح أن تحكم الاسبان في البحر لم يستعمل بشكل تام.

ولا يمكن التذرع بتعين شق الطريق لنقل السلاح الثقيل. فلقد كان بالامكان نقله في المراكب، في حين كان بوسع الجيش المتوفر على مؤونة اسبوع والمصحوب بسلاح وحيد هو مدفعية الجبال فقط (المحمولة على ظهر البغال) أن يصل الى المرتفعات المطلة على تطوان في ظرف خمسة أيام على الاكثر، وينتظر هناك فرقة ريوس التي سهل عليها، ثلاثة أسابيع فيما بعد، أن ترسو في مصب واد الجيهو Wahad EL Jehu وربما كان بالامكان خوض معركة 4 فبراير في ظروف أكثر ملاءمة للاسبان يوم 6 أو 7 يناير. وهكذا كان من الممكن انقاذ أرواح آلاف الرجال الذين حصدهم المرض واحتلال تطوان يوم 8 يناير.

ولربما تعلق الامر هنا بجزم جريء. فمن المؤكد أن أودونيل كان يتلهف شوقا لاحتلال تطوان كأي جندي من جنوده. وأنه أبان أيضا عن شجاعة وتبصر ورباطة جأش الى غير ذلك من الخصال العسكرية. الا أنه اذا تطلب منه الامر شهرا للوصول اليها، فانه بامكانه أن يقوم بنفس الشيء في ظرف اسبوع.

لقد كان أمام أودونيل طريقتان للتقدم بجيوشه. أولا، كان بامكانه أن يعتمد أساسا على وسائل المواصلات البرية، وأن لا يستعمل المراكب الا كوسائل مساعدة. وهذا ما قام فعلا. فلقد نظم نقلا بريا منتظما للمؤونة والذخيرة، وأخذ معه في الحملة مدفعية مهمة من عيار 12. وكان على جيشه أن يكون مستقلا تماما عن المراكب. وفي حالة الضرورة، ستصبح هذه المراكب مجرد خط ثان للمواصلات مع سبتة. وهو أمر مفيد لكنه ليس ضروريا.

(10) انظر مؤلف
Maximilien Rubel : **Karl Marx devant le bonapartisme,** Mouton. Paris, la Haye, 1960.

ويتطلب هذا المخطط، بطبيعة الحال، تنظيم قافلة ضخمة من العربات، الشيء الذي يتعين معه شق طريق. وهكذا ضاع اسبوع كامل قبل أن يتم انجاز الطريق الرابطة بين خطوط الجيش والخليج. وعقب كل خطوة تقريبا كان على الطابور والجيش والقافلة وكل شيء أن يتوقف حتى يتم شق شطر آخر من الطريق لمتابعة الزحف في اليوم الموالي. وهكذا كانت المدة التي يستغرقها الزحف مرتبطة بعدد الاميال التي بامكان المهندسين الاسبان انجازها كل يوم. والظاهر انها لم تكن تتعدى نصف ميل في اليوم. وهكذا كانت الوسائل التي اختيرت لنقل المؤونة تستلزم زيادة مهمة في القافلة. وبقدر ما كان الجيش يقضي وقته في الطريق، بقدر ما كان عليه أن يقتات. وعندما هبت، فيما بعد، عاصفة قوية يوم 18 يناير، وأبعدت المراكب عن الساحل، أصابت الجيش المجاعة، في حين كان مستودعهم بسبتة قريبا.

وفي يوم عاصف آخر، تعين ارسال ثلث الجيش الى الوراء لاحضار المؤونة للثلثين الباقين. وهذا ما دفع المارشال أودونيل الى الطواف بثمانية عشر ألف اسباني على طول الساحل الافريقي لمدة شهر بمعدل ثلثي الميل في اليوم. فباعتماد هذا النظام في تموين الجيش، ليست هناك أية قوة في العالم تستطيع أن تقلص من مدة هذا الزحف التي لا نظير لها. لكن ألا يكمن الخطأ في اعتماد هذا النظام ؟

لو كانت تطوان مدينة داخلية واقعة على بعد 21 ميلا من الساحل عوض أربعة أميال، لما كان هناك أي خيار آخر. فلقد واجهت الفرنسيين في حملاتهم داخل الجزائر مصاعب مشابهة، وتغلبوا عليها بنفس الطريقة، على الرغم من أنهم بذلوا طاقة وتحفزا كبيرين (11). وتغلب الانجليز على هذه الصعوبة بسهولة مماثلة في الهند وأفغانستان، وذلك بعلف بهائم النقل في هذه البلدان. غير أن مدفعيتهم كانت خفيفة ولم تكن تتطلب توفر طرق جيدة. وكانت الحملات تقاد في المواسم الجافة حينما يكون بمقدور الجيش أن يتقدم توا عبر البلاد. وان الفضل، كل الفضل، ليرجع الى الاسبان والى المارشال أودونيل لارساله الجيش على طول الساحل طيلة شهر بكامله ليقطع في هذا الردح من الزمن مسافة طويلة بلغت 21 ميلا !!!. ان ما يستخلص من هذا قطعا هو أن معدات الجيش الاسباني وأفكاره بالية. فمع تواجد اسطول من السفن البخارية وسفن النقل على الدوام بمقربة من الساحل، لا نرى هذا الزحف إلا زحفا سخيفا، وأن الرجال الذين قضت عليهم الكوليرا والديسنتاريا لم يذهبوا الا ضحية العجز والآراء البيتة. كما أن الطريق الذي شقه المهندسون لم يكن على صلة حقيقية بسبتة لأن الاسبان لا يراقبونه من أي مكان اللهم الا في الحالة التي يعسكرون فيها. وفي الخلف،

(11) نشر هذا المقال في صحيفة New York Daily Tribune في وقت كان فيه الاسبان مقيمين دائما بتطوان. واقترحوا يوم 16 مارس المدنة مقابل احتلال تطوان حتى أداء التعويض عن الحرب.

بامكان المغاربة في أي وقت أن يتلفوه. ولارسال رسالة أو خفر قافلة في اتجاه سبتة يتعين تعبئة ما لا يقل عن 5.000 رجل. وطيلة المسيرة، كانت المواصلات مع هذا المكان تتم عن طريق المراكب فقط. ورغم ذلك، كانت المؤونة المرافقة للجيش غير كافية الى درجة أنه في ظرف عشرين يوما أشرف الجيش على المجاعة ولم ينقذه الا التموين الذي كان يصله من الاسطول. فلماذا اذن بوشرت أعمال شق الطريق ؟ وهل هي ضرورية للمدفعية ؟ فالاسبان يعلمون علم اليقين أن المغاربة لا يتوفرون على مدفعية وأن مدفعيتهم الجبلية متفوقة على كل الاسلحة التي يمكن أن يواجههم بها العدو. فلماذا اذن تم جر هذه المدفعية طيلة زحفهم، اذا كان بالامكان نقلها عن طريق البحر من سبتة الى سان مارتان San Martin في غضون ساعات معدودة (الى مصب واد الجيهو أو واد تطوان) ؟ فلمواجهة كل احتمال، فان قطعة واحدة من المدفعية الثقيلة كانت كافية لمرافقة الجيش. وستكون المدفعية الاسبانية ممعنة في الرعونة ان لم تستطع أن تتقدم في أي ميدان في العالم الا بمعدل خمسة أميال في اليوم.

لقد نقل الاسبان عن طريق البحر على الاقل فرقة كاملة دفعة واحدة كما أثبت ذلك انزال فرقة ريوس بسان مارتان. ولو خاض الهجوم جنود انجليز أو فرنسيون لرست هذه الفرقة دفعة واحدة بسان مارتان، بعد القيام بمناورات في ساحل سبتة لصرف أنظار المغاربة الى هذه المنطقة. وبامكان هذه الفرقة المكونة من 5.000 رجل والمحصنة في خنادق جماعية يتم حفرها في ليلة واحدة، أن تواجه دون خوف أي هجوم للمغاربة أيا كان عددهم. الا انه كان بالامكان انزال فرقة كاملة كل ليلة لو أن أحوال الطقس كانت مواتية. وكان بامكان الجيش أن يتمركز فيما بعد، على مقربة من تطوان في ظرف ستة أو ثمانية أيام. ومع ذلك يمكن أن نشك في أن يكون أودونيل قد رغب في تعويض احدى فرقه لهجوم معزول لمدة ثلاثة أو أربعة أيام احتمالا، ذلك أن جنوده شبان لم يتعودوا على الحرب. لهذا لا يمكن أن نلومه على عدم اتباعه هذه الطريقة.

غير أنه كان عليه أن يتبنى طريقة أخرى. فبرجال متزودين بمؤونة أسبوع، وبكل أسلحته الجبلية، وربما ببطارية واحدة من المدفعية الثقيلة، وبمعدات حربية محمولة على ظهر البغال والخيول، كان بمستطاعه أن يزحف من سبتة وأن يقترب من تطوان بأسرع ما يمكن. واذا أخذنا بعين الاعتبار كل المصاعب، فان مسافة 8 أميال في اليوم مسافة لا يستهان بها. ولنجعلها خمسة أميال فقط، الشيء الذي يعني مسيرة أربعة أيام. ولنجعلها ميلين نظرا للاشتباكات المحتملة على الرغم من أنه، في الحقيقة، لن تكون الا انتصارات بئيسة تلك التي لا تحرز تقدما يعادل خمسة أو ستة أميال في اليوم أيا كانت الاحوال.

وبعدئذ سيصل الجيش الى سهل تطوان قبل نفاذ المؤن، كما أن السفن الحربية ستكون هناك لانزال تعزيزات مكونة من جنود جدد كلما تقدموا كما فعلوا مؤخرا. فالمغرب ليس بلدا ذي تضاريس أو طقس أقبح من تضاريس وطقس الجزائر، ومع ذلك قام الفرنسيون بالشيء الكثير في فصل الشتاء وفي الجبال الاكثر توغلا دون أن تدعمهم السفن أو تمونهم (12). وعند الوصول الى مرتفعات مونتي نيكرو المتحكمة في ممر تطوان، سيتأتى الاتصال بالاسطول عن طريق سان مارتان، وسيشكل البحر قاعدة للعمليات. وهكذا فبشيء من الجرأة، كانت الفترة التي ينطلق فيها الجيش من نفسه كقاعدة للعمليات قابلة للتقليص من شهر الى أسبوع. والخطة الاكثر جرأة هي الخطة المأمونة من هاتين الخطتين. فبقدر ما يبدو المغاربة مريعين بقدرما يصبح زحف أودونيل البطيء محفوفا بالمخاطر. ولو دحر الجيش في طريق تطوان لسهل عليه التراجع مما لو كان مثقلا بأمتعته ومدفعيته الثقيلة.

لقد كان تقدم أودونيل عبر سلسلة مرتفعات مونتي نيكرو التي قطعها دون أية مقاومة، مطابقا لبطئه المعهود. وهكذا انبرى من جديد يبني على وجه السرعة ويدعم المعاقل كما لو كان سيواجه جيشا أحسن تنظيما. وهكذا أضاع اسبوعا كاملا، على الرغم من أن انشاء تحصينات مرتجلة كان كافيا لصد أمثال هؤلاء المقاومين. فلم يكن من المتوقع أن يهاجم بمدفعية توازي قوتها قوة ستة بنادق جبلية من بنادقه. كما أن يوما أو يومين كانا كافيين لبناء

(12) إن المماثلة القائمة بين استعمار الجزائر والمشروع الاستعماري الاسباني كان أمرا شائعا في تلك الحقبة. وفي هذا يقول Filias «وكنا نأمل أن يكون عمل اسبانيا بالمغرب مماثلا لعمل فرنسا بالجزائر، وأن يكون إشارة لافتتاح البلاد في وجه العمل الأوروبي». انظر

Filias, L'Espagne et la Maroc en 1860 Paris in 8, 17 Op.

كما أن أودونيل نفسه صرح موجها الخطاب الى المغاربة «إني أفعل معكم مالم يفعله الفرنسيس مع أهل الجزائر وتلمسان» ذكره الناصري في الاستقصاء المرجع السالف الذكر، ص 91.

والاحالات التي يقوم بها انجلز على التجربة الفرنسية بالجزائر والتجربة والانجليزية بالهند، تتوخى مقارنة سلوك القادة العسكريين الذين قادوا الحملة الفرنسية بالجزائر والاسبانية بالمغرب، وبالخصوص منهم بيجو **Bugeaud** وأودونيل. فلقد سجل انجلز وضاعة بيجو وتردده في الوضعيات الحرجة وطابعه المتعفن، كما حاول أن يعطي للعمل الذي قام به بيجو بالجزائر حجمه الحقيقي. انظر رسالة انجلز الى ماركس بتاريخ 22 شتنبر 1807، في Marx-Engels; correspondance Tome 5, p.29. أما ماركس، فإنه بعد أن أشار الى حدود وهفوات بيجو، أقر له بكونه «غير السياسة الفرنسية بالجزائر جذريا ، فلقد كان أول حاكم يتحكم في جيش في مستوى المهام الملقاة على عاتقه، وأول من تمتع بسلطة مطلقة لدى جنرالات المرتبة الثانية، واحتل منصبه وقتا كافيا لتنفيذ مخطط كان سيتطلب انجازه سنوات عديدة... انظر ماركس في مقاله **Bugeaud** الوارد في **Encyclopédie americaine, 1858.** ولقد تميزت مقالات انجلز بالسخرية الادعة تجاه أودونيل أثناء حرب تطوان. فلكم كان يسره أن يلاحظ الفرق بين الخرافة التي شيدتها الصحافة الاسبانية وبين تصرفه على ساحة القتال. فلقد كانت مصاعب الحملة وبالخصوص منها شجاعة المقاتلين المغاربة، تبرز أودونيل كجنرال وضيع. كما أن «الجنرال» انجلز كان بالغ الصرامة في حقه عندما أعلن بأن أودونيل يجر الخزي والعار على الجيش الاسباني. وكان قاسيا في حقه عندما أقر له بفضل تنظيم أبطىء زحف في التاريخ العسكري الحديث.

مثل هذا المعسكر. وفي الاخير، قام يوم4 بمهاجمة معسكر المقاومين. ويبدو أن الاسبان قد تحملوا هذه العملية بشكل جيد. أما عن مزايا الترتيبات التكتيكية، فليس بامكاننا أن نبث فيها لكون المراسلين القلائل المتواجدين في المعسكر الاسباني يغفلون كل التفاصيل العسكرية القائمة ولا يحتفظون الا بتغطية مقبولة ومفعمة بحماس زائد.

وهنا ينتهي الفصل الاول من الحملة. واذا لم يكن امبراطور المغرب ممعنا في العناد، فانه من المحتمل أن يضع حدا لهذه الحرب كلها. وهكذا تثبت المصاعب التي واجهت الاسبان ـــ والتي تفاقمت بسبب الطريقة التي خاضوا بها الحرب ـــ أنه اذا صمد المغرب فان اسبانيا ستجد فيه خصما يحسب له حساب. والسبب في ذلك لا يرجع الى المقاومة الحالية للمقاتلين المغاربة اللانظاميين الذين لن يهزموا ابدا الجنود المنضبطين طالما حافظ هؤلاء على انسجامهم وتأتى تموينهم، بل يرجع الى الطبيعة المتوحشة للبلد واستحاله غزو أي شيء عدا المدن وتعذر ارسال التعزيزات ولو انطلاقا من هذه الاخيرة. فهناك ضرورة تشتيت الجيش على عدد كبير من المراكز غير الكافية لضمان التواصل مع المدن المحتلة والتي لا يمكن تموينها الا بارسال جزء كبير من القوات لخفر قوافل التموين عبر بلد يفتقر للطرق. كما أن هناك تهديد مستمر ببروز جماعات من المقاتلين المغاربة. ونحن نعلم ماذا كان يعني بالنسبة للفرنسيين خلال السنوات الخمس أو الست من فتوحاتهم الافريقية، تموين البليدة أو ميديا، دون حاجة الى الحديث عن المراكز الواقعة بعيدا عن الساحل (13). فمع الاستنزاف السريع للجيوش الاوروبية في طقس من هذا النوع، فان ستة أو اثنا عشر شهرا من حرب كهاته لا يمكن أن تكون مجرد مزاح بالنسبة لبلد كاسبانيا.

وإذا ما كتب للحرب أن تستمر، فستكون طنجة، بطبيعة الحال، أول هدف للهجوم. ويمتد الطريق القادم من تطوان في اتجاه طنجة عبر ممر جبلي، ثم ينعرج على المنحدرات بالوادي. والامر يتعلق هنا بانجاز عمل عن طريق البر، دون مرافقة المراكب لضمان التموين، وفي منطقة تنعدم فيها الطرق. وتبلغ المسافة 26 ميلا. فكم من الوقت سيستغرقه أودونيل لقطع هذه المسافة ؟ وكم من رجل سيترك بتطوان ؟ ويروى أنه أكد أن الامر يتطلب 20.000 رجل للاحتفاظ بها. غير أنه يبالغ كثيرا دون شك. بعشرة آلاف رجل بالمدينة وبلواء محلي في معسكر محصن بسان مارتان، يمكن لهذا المكان أن يبقى في مأمن. وبقوة كهاته

(13) في مقاله «الجزائر» المنشور في الانسيكلوبيديا الامريكية، المجلد الأول 1858، كان انجلز يعتقد بأن داخل الجزائر لم يستعمر بعد في الفترة التي كان يكتب فيها فالسيادة الفرنسية ليست إلا وهمية إذا ما استثنينا الشريط الساحلي ونواحي المدن...».

يمكن دائما التوسع بالمنطقة بل وتشتيت كل هجوم مغربي. ويمكن احتلال طنجة بقصفها من البحر ونقل الحامية هنا وهناك عبر العرائش وسلا والصويرة. ولكن اذا كان الاسبان ينوون التصرف على هذا المنوال فلماذا قاموا بهذا الزحف الطويل على تطوان ؟ حكم المؤكد هو أنه لا زال يتعين على الاسبان أن يتعلموا الشيء الكثير في فنون الحرب قبل أن يكون بمستطاعهم ارغام المغرب على الجنوح الى السلم اذا ما تمكن، على كل، من الصمود بسنة اخرى (14).

(14) انتهت الحرب الاسبانية المغربية لسنة 1859 ــ 1960 باحتلال تطوان وابرام معاهدتي 1960 و1961.

وتنص معاهدة 26 أبريل، فيما عدا بعض التعديلات الترابية الخاصة بالمنطقة المحيطة بسبتة ومليلة، على أداء تعويض واحتلال تطوان الى غاية الوفاء بالدين. وفي سنة 1861، تم التوقيع على اتفاقية تجارية تخول لاسبانيا بعض الامتيازات.

وبعد سنتين من نشر مقالات انجلز جول تطور العمليات، عاد ماركس الى الموضوع باقتضاب متحدثا عن المناقشات داخل البرلمان البريطاني والمتعلقة بالأوفاق المنهية للنزاع الاسباني المغربي : «إن آخر مسألة مفتوحة في السياسة الحالية تتعلق بالمغرب. فالحكومة الانجليزية قد صادقت على معاهدة مع المغرب تمكنه من أداء دينه تجاه اسبانيا في الوقت المحدد بغية إبعاد كل ذريعة من شأنها تمديد احتلال تطوان والحيلولة دون نشوب الحرب من جديد. كما ضمنت لهم الحكومة الانجليزية بطريقة أو بأخرى فوائد قروضهم، وأخذت من جانبها كرهن تسيير مكاتب الجمارك المغربية. ولقد وجد ديري هذه الطريقة في ضمان استقلال المغرب، طريقة غريبة، إلا أنه لم يتمكن من انتزاع أي جواب من الوزارء. وأثار ديزرايلي من جديد، في مجل س العموم، مسألة هذه الصفقة المناقضة للدستور لكونها تثقل كاهل انجلترا بالتزامات مالية جديدة في غيبة البرلمان...» انظر
Karl Marx, Die Adresse debatte im Parlament, écrit à londres le 7 février,1862, publié dans le **Die Presse,** n°42, du 12 février 1862.

II

رُوزا لوكسمبورغ والازمة المغربية لسنة 1911

1) المغرب (1)

لقد تلبدت سماء العالم الرأسمالي بسحابة محملة بزوبعة امبريالية. وها هي ذي أربعة قوى أوروبية كبرى — فرنسا، المانيا، انجلترا واسبانيا — تتورط في متاجرة تستهدف تحديد مصير المغرب، وفي نفس الوقت تحديد مصير أقاليم شاسعة من «القارة السوداء» التي تعد اليوم هنا وهناك «كمعاوضات» (2). ففي كل يوم، يأتي خبر ينبىء عما وصلت اليه المفاوضات، لتتزايد الآمال والمخاوف بشكل مباغت ومتضارب. فهل سينبلج عن هذه السحابة العاصفية برق حرب اجرامية أم ستتبدد العواصف وتأخذ شكل مساومة «سلمية» تمرر بقايا العالم من يد العسكراتية الأوروبية الحديدية الى يد اخرى ؟ ان هذا ما يشغل اليوم آلاف الكائنات البشرية. وللعثور على جواب على هذا السؤال، تتجه كل الانظار قلقة نحو باب موصود لغرفة يجتمع فيها رجلا دولة هما : السفير الفرنسي كامبون Cambon وكاتب الدولة الألماني Kilderlen-Wacheter. ومع ذلك، فانه لا يخفى على أحد بأن رجلي الدولة لا يملكان أية سلطة خاصة،

(1) انظر
— Rosa Luxemburg, Le Maroc, **Die Gleichheit**, n° 23, 14, août 1940.

(2) انظر بشأن هذه القضايا

— Barlow (I.CH), The Agadir Crisis, Chapel Hill, The Univ. of **North carolina Press**, 1940, X—422 p.

وانظر بالخصوص أطروحة :

Allain (J.Cl), **Agadir 1911. Une crise impérialiste en Europe pour la conquête du Maroc** Université de Paris I, Publication de la Sorbonne, 1976, 472 p.

وأنهما ليسا الا مجرد دميتين متحركتين من الورق المقوى تحرك خيوطها أيادي طغمة من كبار الرأسماليين. وحربا أو سلما، تتم معارضة المغرب بالكونغو أو الطوغو أو بطايتي. وهذه أمور تتوقف عليها حياة الآلاف من الاشخاص وسعادة أو شقاء شعوب بأكملها. وتترك دزينة من النصابين العنصريين للكتبة الدهاة السياسيين أمر المساومة على هذه المسائل كما نساوم في السوق على اللحم أو البصل. وتنتظر الشعوب في قلق كقطعان من الاغنام تساق الى المجزرة. وهنا تتجلى الوحشية المثيرة والخسة المشينة التي تملأ بالحنق كل أولئك الذين لا يعنيهم مباشرة أمر هذه المتاجرة الدنيئة. ومع ذلك، فان السخط المعنوي ليس هو القاعدة والسلاح اللذان بواسطتهما سيكون لنا تأثير على تقلبات السياسة الرأسمالية العالمية.

ويتعلق الامر، بالنسبة للبروليتاريا الواعية، بفهم القضية المغربية من خلال دلالة أعراضها، وتقييم ارتباطاتها الواسعة وعواقبها. غير أنه يمكن أن نقول سلفا بأن المغامرة السياسية العالمية الاخيرة غنية بالارشادات بالنسبة لوعي البروليتاريا السياسي.

إن الأزمة المغربية هي قبل كل شيء نقد لاذع لاكذوبة نزع سلاح الدول الرأسمالية وبورجوازيتها. ففي انجلترا وفرنسا عبر رجال الدولة والبرلمانيون في جمل طنانة عن ضرورة تقليص النفقات المتعلقة بأدوات الفتك واحلال العلاقات المتحضرة المتمثلة في مسطرة التحكيم محل الحرب الوحشية. وفي المانيا، انضمت الجوقة الليبرالية بحماس الى نغمات موسيقى السلام. واليوم، نفس رجال الدولة ونفس البرلمانيين يرفعون عقيرتهم بالدعوة الى مغامرة سياسية استعمارية تدفع بالشعوب الى شفا حرب عالمية. وكالعادة تحمست الجوقة الليبرالية بألمانيا لهذه المغامرة المنطوية على الحرب، كما فعلت سابقا بصدد اعلانات السلم. ويثبت هذا التغير المفاجيء في المشهد مرة أخرى بأن مقترحات نزع السلاح وتظاهر العالم الرأسمالي بالسلم ليس الا ديكورا يستخدم بين الفينة والاخرى في الكوميديا السياسية، غير أنه سرعان ما يزاح بصلافة عندما تصبح القضايا جدية. فعقد الآمال على جنوح المجتمع الرأسمالي للسلم والمراهنة عليه لن يكون، بالنسبة للبروليتاريا، الا وهما زائفا.

وفيما عدا هذا، تظهر من جديد بوضوح من خلال المسألة المغربية العلاقة الحميمة القائمة بين السياسة العالمية والوضعية السياسية الداخلية للدول. فنتيجة المغامرة الاوروبية التي تكاد تزج بألمانيا في حرب دموية. ستغير بقوة، أيا كان الحال، الوضعية العامة الحالية ووضعية الممتلكات الاستعمارية لالمانيا . فلقد تزامنت، شأنها في ذلك شأن الحملة الصينية والقضية الجزائرية فيما بعد، مع فترة العطلة البرلمانية. وهكذا أقصي التمثيل السامي للشعب الالماني المتمثل في الرايخستاغ عن القرارات والاحداث المهمة المثقلة بالعواقب. فالحكم الفردي وحده وخدامه — وهو بنفسه أداة لا مسؤولة في يد طغمة لا مسؤولة — يتصرفون كما يحلو لهم

بمصير 64 مليونا من الالمان كما لو كانت المانيا بلدا استبداديا من بلدان الشرق. ولقد أصبحت خطب Königsberg و Marienburg الامبراطورية واضحة : فوسيلة السماء تلعب دورا في تمام السيادة، أو على الاصح تتذرع بها على حساب الشعب بعض الجماعات الرأسمالية المتعطشة للنهب. ان الملكية ودعاماتها والارستقراطية المحافظة القارعة لطبول الحرب هي المسؤولة الرئيسية عن المغامرة المغربية.

ولا يمكن الاستهانة بالتأثير الفعال للقوة البحرية والعسكرية التي تستشف من خلال الدبلوماسية الالمانية في القضية المغربية. هذه القوة الجنوبية التي ليست الا ذلك الضغط العنيف الناتج عن تكدس أكوام من المدافع ومن السفن المصفحة على مر العقود، اذ كان يدعى فيما مضى أنها أسوار ضرورية للسلم وأصبحت الآن تدفع المسؤولين عن السياسة الالمانية الحالية الى التهور وقرع طبول الحرب. ويرجع الفضل في «قفزة النمر» هاته على مستوى السياسة الخارجية، والتي قد تكون وبالا من خلال تطوراتها المستقبلية على الشعب الالماني، الى الاحزاب البورجوازية التي شحنت ودعمت التسليح المستمر للامبريالية الالمانية. ويسير في المقدمة ولطخة دم على جبينه حزب الوسط المنافق، الذي استغل منذ سنة 1900 التضاعف المشهود في عدد وحدات الاسطول الحربي الالماني ليتسلق الى مصاف حزب حكومي. ومسؤولية الليبرالية المثيرة للرثاء والاشفاق لا تقل جسامة. تلكم الليبرالية التي ما فتئت تنهار تدريجيا كما يشهد على ذلك تصاعد العسكراتية. فالفشل التام هو الخاتمة التعيسة لليبرالية البورجوازية اذا ما راعينا الهجمة القوية للعسكراتية التي تدوس بأقدامها الديموقراطية والبرلمانية والاصلاح الاجتماعي. الا أنه نظرا لكون المستجدات الاخيرة للسياسة العالمية ومغامرتها الحالية ليست الا انبثاقا منطقيا عن النمو الاقتصادي والسياسي للمجتمع البورجوازي الطبقي، فان لهذه المستجدات جانبا ثوريا يلتمس طريقه فيما وراء البؤس الفوري والطابع المتغطرس مؤقتا لهذه الاحداث. فالدلالة التاريخية للنزاع المغربي المقلصة الى حدود التعبير المبسط والمباشر تتمثل في الصراع التنافسي بين ممثلي الرأسمالية الاوروبية للاستحواذ على الرأس الشمالي الغربي من القارة الافريقية وابتلاع الرأسمال له.

وهذا ما يعبر عنه كل طور من أطوار تطور السياسة العالمية. لكن «نمسيس» الرأسمالية قضت أنه بقدرما تلتهم هذه الاخيرة العالم بقدرما تستأصل جذورها بيدها. فما ان تتهيأ لادخال «النظام» الرأسمالي في العلاقات البدائية لقبائل الرعاة وقرى الصيادين المغاربة المعزولين عن العالم، حتى ينهار النظام الذي وضعته في كل أرجاء القارات الاخرى. فلهيب الثورة متقد في تركيا وبلاد فارس ومكسيكو وهايتي، ويأكل في صمت من بنيان الدولة في البرتغال واسبانيا وروسيا. فالفوضى في كل مكان، وأينما وليت، تتمرد المصالح الحيوية للشعوب وقوى التقدم

والنمو على ورطة النظام البورجوازي. وهكذا فان الحملة الاخيرة للرأسمال من أجل فتوحات جديدة ليست الا الطريق الذي سيقوده نحو حتفه. ولن تكون المغامرة المغربية في نهاية المطاف، شأنها في ذلك شأن كل حلقة من حلقات السياسة العالمية، الا خطوة نحو تعجيل الانهيار الرأسمالي.

وفي هذا السياق، لا يطلب من البروليتاريا المسلحة بوعيها الطبقي، أن تتفرج بسلبية على انهيار نظام المجتمع البورجوازي. فالالمام الواعي بالدلالة المضمرة للسياسة الدولية وعواقبها ليس فلسفة مجردة بالنسبة لطبقة الكادحين، بل على العكس من ذلك، هو الاساس الفكري للسياسة الديناميكية. ومن المؤكد أن السخط المعنوي ليس في حد ذاته سلاحا ضد الاقتصاد الاجرامي للرأسمالية، بل هو المؤشر الحقيقي — على حد تعبير انجلز — الذي يعكس التناقض بين المجتمع المسيطر ومشاعر العدالة ومصالح جماهير الشعب. فمهمة وواجب الاشتراكية الديموقراطية هو التعبير بكل ما يمكن من الوضوح عن هذا التناقض. ويتعين ليس فقط على طليعة البروليتاريا المنظمة، بل على كل شرائح الشعب الكادح الواسعة أن تنتفض في سيل عارم من الاحتجاجات ضد الغارة الجديدة للسياسة الدولية الرأسمالية (3). ان الوسيلة الفعالة الوحيدة للنضال ضد جريمة الحرب والسياسة الاستعمارية هي النضج الفكري والارادة المصممة لطبقة الكادحين التي بقيامها بعصيان يشمل كل المستغلين (بفتح الغين) والمغلوبين على أمرهم، سيحيل الحرب العالمية الدنيئة المخططة لمصلحة الرأسمال الى سلم عالمي وتآخي اشتراكي بين الشعوب (4).

2) الاشتراكية — الديموقراطية الألمانية والقضية المغربية (5)

من المؤكد أن دوائر واسعة في الحزب قد اعربت عن ارتياحها بعد أن قام هذا الاخير باتخاذ قرار القيام بعمل جماهيري ضد القضية المغربية واخراجه بذات الوقت منشورا لهذا

(3) يتلخص Badia (G) الفرق بين عسكراتية روزا لوكسمبورغ وعسكراتية القادة الاشتراكيين الديمقراطيين الآخرين كالتالي : إن روزا لوكسمبورغ «تعتقد أنه بتعبئة الجماهير حول مسألة أساسية، يمكن الاجهاز على الامبريالية» وبالتالي ضرب الدور والنظام الرأسماليين في الصميم. أما الآخرون فكانوا يريدون تضليل اليمين ومنع هيمنة «كارتل اليمين على حكومة ألمانيا. فهذا النضال المعادي للعسكراتية يستند، بالنسبة لروزا لوكسمبورغ، الى الاستراتيجية العامة للطبقة الكادحة. أما بالنسبة لقادة الاشتراكية الديمقراطية، فإن له مضمونا تكتيكيا محدودا وإن كان لا يستهان به...» ورد في:

Rosa luxemburg, journaliste, polémiste, révolutionnaire, ouvrage précité, p.185.

(4) بالنسبة لروزا لوكسمبورغ، وعلى عكس سابقيها، فإن النضال الثوري للبروليتاري يلتبس بالنضال الامبريالي. انظر:

Galissot (R), Rosa Luxemburg et la colonisation, dans **l'homme et la société** 2ème semestre 1974, pp. 133—152 et «Marxisme et Algérie», précité, pp. 273 et s.

(5) انظر

Rosa Luxemburg, Notre tract sur le Maroc, **Leipziger Volkszeitung,** 1911, 196, 26 août.

الغرض (6). واذا كان هذا الاخير أقل حشدا للهمم من التجمعات العامة، فان أثره بالمقابل أكثر دواما منها، اذ يستهدف المنشور تقديم التوضيحات لجماهير الشعب العريضة وتوضيح مفهومنا لدى دوائر غير مطلعة بما فيه الكفاية وحثها على المشاركة في تجمعات الاشتراكية الديموقراطية. فبصفتنا روادا، نرى بأن المنشورات التي من شأنها أن تمهد لنا سبيل الاوساط التي لا زالت لم تنضم الينا، وأن تدعم تعلق أولئك الذين تبنوا مفهوم العالم الاشتراكي الديموقراطي، تعد بالنسبة لنا سلاحا استثنائيا. وعلى الحزب أن يعير مسألة تحريرها اهتماما بالغا.

وإذا ما ركزنا اهتمامنا على المنشور نفسه، فلن نفتأ نردد المثل القائل «لا داعي للعجلة...» فلو لم يتخذ قرار العمل ضد نزعة الحرب في وقت متأخر وبنوع من التسرع، لكان بامكاننا أن نحرز على أشياء مفيدة. ففي صيغته الحالية، يؤسفنا أن نقول بأن عناء طبع المنشور في مئات الآلاف من النسخ قد ذهب أدراج الرياح. فأول شيء نتوقعه في منشور يبتغي توضيح القضية المغربية من وجهة نظر الاشتراكية الديموقراطية، هو بالاساس تبيان العلاقة القائمة بين السياسة الدولية والنمو الرأسمالي. اذ يتعين على الجماهير أن تعرف، في نهاية المطاف، ماهي هذه السياسة الدولية. الا أن المنشور جاء حاملا للعنوان التالي : «السياسة الدولية، الحرب العالمية والاشتراكية الديموقراطية». وكان الاولى البدء بتسليط الاضواء على طبيعة السياسة الدولية، وشرح روابطها بفترة نضج الرأسمالية المعاصرة على وجه التدقيق. فهذا التقرير هو الوسيلة الوحيدة لتحديد موقفنا، تاريخيا، من السياسة الدولية (Weltpolitik) وموقف هذه الاخيرة من الاشتراكية، والا فانه لن يبقى بين أيدينا الا التعبير عن السخط المعنوي على الطابع اللانساني للحرب وترديد وجهة نظر البقال الضيق الافق والقائلة «بأننا نحن الكادحين ليس لدينا ما نجنيه من الويلتبوليتيك». وبالفعل، لا يتحدث المنشور الا على الويلتبوليتيك !! ولم يشر ولو بكلمة الى علاقتها بالرأسمالية ولا الى أبجدية مفهومنا. كما لم يتطرق أبدا الى الويلتبوليتيك كظاهرة دولية. كل ما هنالك أن المنشور يبدأ بالمقابلة بين ألمانيا وانجلترا، ويطرح المشكل كله في اطار هذه المقابلة : انجلترا والمانيا، ألمانيا وانجلترا. ويسير المنشور على هذا المنوال حتى لأن المرء يخال بأن الامر يتعلق بدردشة تجري بين سياسيين سوسيو ديموقراطيين في مقهى ولا يتعلق بتحليلات اشتراكية ديموقراطية للمشاكل الكبرى.

وفي نظرنا، كنا نتوقع أن يمر المنشور على الأقل مر الكرام على علاقة الويلتبوليتيك عموما والقضية المغربية على الخصوص بالتطور الداخلي لألمانيا والعسكراتية والنزعة البحرية

(6) انظر بخصوص الظروف التي أدت الى نشر هذا المنشور وما أعقبه
Nettle (J.P) **la vie et l'oeuvre de Rosa Luxemburg,** Maspéro, Paris, Bibiothèque Socialiste, 21; T.1, pp. 452-433.

والشؤون المالية والسياسة الضريبية والركود وردود الفعل في الميادين الاجتماسياسية والطابع المهزوز للوضعية الداخلية (7). لكنه سكت عن كل هذه المشاكل. وعندما تعرض للاستعدادات العسكرية الالمانية، قام بذلك على سبيل المقارنة. أما لماذا تطال ألمانيا والدول الاخرى الاستعدادات للحرب والرغبة في تقمص دور القوة الكبرى، فهذا ما بقي في الظل ولم يتم التطرق له بتاتا (8)... والسبب في عدم ذكر هذه الافكار لا يعود الى ضيق المجال، بل، على العكس من ذلك، يعود الى كون المسألة قد طرحت على أساس مغلوط.

فعوض فهم القضية المغربية من خلال ارتباطاتها العامة كمجرد تمظهر جزئي للويلتبوليتيك كما يشير العنوان الى ذلك، ينكب المنشور على التناقض الجزئي بين ألمانيا وانجلترا. وعوض أن يفسر ما لا يعدو أن يكون سوى نتيجة لما سبق — أي الويلتبوليتيك كنتاج مطابق لقوانين النمو الرأسمالي — جهد نفسه، بالعكس، وطيلة الوقت، في تبيان أن سياسة الويلتبوليتيك ليست الا سخافة وحماقة حتى في أعين المجتمع الرأسمالي نفسه. واستلهاما لهذه الفكرة الاصيلة، يسعى المنشور الى اثبات أنه لا فائدة ترجى من الويلتبوليتيك والسياسة الاستعمارية حتى بالنسبة للطبقة المالكة نفسها، بل انهما ليسا الا عبئا ثقيلا. وهكذا لا يسقط الحزب فحسب في تناقض غريب مع الحقيقة المضمرة القائلة بأن كل الطبقات المالكة اليوم مهيأة تماما لتكون وطنية استعمارية متفانية في عسكراتيتها ووطنيتها، ولا يصل به الامر فقط الى وضع سخيف يتمثل في رغبته فهم مصالح الطبقات البورجوازية بطريقة أحسن مما تفعله هذه الاخيرة نفسها، في حين أن العكس هو الصحيح، بل ان الحزب هنا يحمل على عاتقه عبء الكفاح ضد الويلتبوليتيك، ليس من وجهة نظر الطبقات البروليتارية، ولكن باسم انسجام مزعوم للمصالح بين البروليتاريا و «جماهير الطبقات المالكة» حول هذه النقطة !!!

إنه ليتعذر علينا أن نستحضر في الذهن سخافة كهاته. ولا ثباث هذا الانسجام العجيب في المصالح، يدعي المنشور، في شطط، أن وطنية الطبقات البورجوازية لا تنزع الى الحرب، بل انها لحريصة في لهفة على الحفاظ على السلم.

(7) خصص Badia (G) لنضال روزا لوكسمبورغ ضد العسكراتية فصلا جامعا مانعا في
Rosa luxemburg, journaliste, polémiste, revolutionnaire Editions Sociales, Paris, 1975, pp.179 et s,

(8) من خلال التعريف الذي جاءت به روزا لوكسمبورغ في سجالها ضد شيبل Schieppel والمنشور كملحق في «إصلاح أم ثورة ؟» اعتبرت العسكراتية بالنسبة للطبقة الرأسمالية، على الصعيد الاقتصادي كنوع من الاستثمار لا يعوض، وعلى الصعيد الاجتماعي والسياسي كأحسن دعم للهيمنة الطبقية، وفي أعمالها النظرية «كتراكم رأس المال»، فإن الهم الحاضر باستمرار لدى روزا لوكسمبورغ هو شرح العلاقة القائمة بين السياسة العسكراتية والمرحلة الراهنة من نمو الرأسمالية.

3) أزمة الاشتراكية الديموقراطية الألمانية (9)

... أما فيما يخص الاتجاه الثاني لجهود توسع ألمانيا، فقد ظهر للعيان في قضية المغرب (10). اذ لم يتجل الابتعاد عن سياسة بسمارك في مكان ما مثلما تجلى هنا. فكما نعلم، كان بسمارك يشجع عمدا الطموحات الاستعمارية لفرنسا بغية صرف أنظارها عن المناطق الساخنة في السياسة القارية، وبالخصوص في الألزاس — لورين. أما التوجه السياسي الجديد لالمانيا، فقد بادر، على عكس سابقه، الى مهاجمة توسع فرنسا الاستعماري مباشرة (11). غير أنه كانت هناك فروقا دقيقة بين الوضعية بالمغرب ومثيلتها في تركيا الاسيوية، اذ لم يكن بالمغرب من المصالح الرأسمالية الالمانية الحقيقية الا النزر القليل. ولا شك أنه أثناء أزمة المغرب، أقام الامبرياليون الالمان ضجة كبرى حول مطالب الشركة الرأسمالية Mannesmann de Remscheid التي كانت قد أقرضت سلطان المغرب أموالا مقابل امتيازات معدنية. وجعلوا منها قضية «مصلحة حيوية للوطن» (12). لكن بما أن المجموعتين الرأسماليتين المتنافستين بالمغرب — مجموعة Mannesmann وشركة Krupp -Schneider — يمثلان خليطا دوليا من المقاولين الالمان والفرنسيين والاسبان، فاننا لا نستطيع أن نتحدث جديا وبنجاح عن «منطقة مصالح ألمانية». وانه لذو دلالة أن تعلن فجأة الامبراطورية الالمانية سنة 1905 بتصميم وقوة عن عزمها في المساهمة في تسوية قضية المغرب، واحتجاجها على الهيمنة الفرنسية على هذا البلد. وكانت هذه أول مشادة مع فرنسا على مستوى السياسة العالمية. ففي سنة 1895،

(9) مقتطف من

La crise de la social-démocratie, Bruxelles, la Taupe, 1970, pp.110-113. Ancienne edition **La crise de la social-démocratie,** traduite par Raymond Renaud, Paris, 1934.

(10) انظر بخصوص الأوجه المختلفة للسياسة الاستعمارية الألمانية

Brunschwig (H), **L'expansion allemande outre-mer du 15e siècle à nos jours,** Paris, 1957. Cornevin (R), **Histoire de la colonisation allemande,** Paris, 1969, Hendersen (W) «Studies in german colonial history», London; 1962.

(11) إذا كان بيسمارك في مؤتمر مدريد، سنة 1880، يدعم مطالب فرنسا التي لها مصالح مشروعة بالمغرب، فإن المانيا ما لبثت أن دخلت الى الحلبة تحت ضغط والمصالح الاقتصادية انظر.

Renouvin (R), **Histoire des relations internationnales,** T.VI. Le XIXème siecle. p. 90.

(12) انظر حول تطور العلاقات الألمانية المغربية مقالات جرمان عياش.

Etudes d'histoire marocaine, SMER, Rabat, 1979: La première amitié germano marocaine 1885-1894 pp. 229—247: La crise des relations germano-marocaines 1894—1897, pp. 249—291.

وانظر أيضا :

P.Guillen: **L'Allemagne et le Maroc de 1870 à 1905,** vol I.P.U.F. 1976. 991 p.

انقضت ألمانيا على اليابان المنتصر، إلى جانب فرنسا والصين، لمنعه من استغلال انتصاره على الصين في Chimonoseki. وبعد خمس سنوات دخلت مع فرنسا في وئام داخل الكتيبة الدولية الكبيرة التي شكلت لغرض القيام بحملة نهب في حق الصين. والآن نشهد بخصوص المغرب تغييرا جذريا في العلاقات الفرنسية ــ الالمانية. فخلال سبع سنوات التي استغرقتها أزمة المغرب، كانت الحرب قاب قوسين أو أدنى من أن تنشب بين فرنسا وألمانيا مرتين. ولم يكن الامر هذه المرة يتعلق «بأخذ الثأر» لتنافس قاري ما بين الدولتين، بل الامر هنا تعلق بنزاع آخر تولد ونشأ مما تصطاده الامبريالية الالمانية فوق أرض الامبريالية الفرنسية. وفي النهاية، خلصت هذه الازمة الى قبول ألمانيا القناعة بالاقليم الكونغولي، وبالتالي اعترافها بأنها لا تملك أية مصالح بالمغرب. ولهذا السبب بالضبط كانت للمناوشة الالمانية بالمغرب دلالة سياسية مشحونة بالعواقب. فنظرا لكون أهدافها ومطالبها المضبوطة غير محددة، كانت سياسة ألمانيا بالمغرب تخذل أطماعها التي لا تعرف حدودا. وهكذا نراها تتلمس طريقها باحثة عن فريسة. ولقد اعتبرت هذه السياسة عموما كاعلان للحرب الامبريالية على فرنسا. وسلطت الاضواء على أوجه المقارنة بين الدولتين. ففي تلك الجهة، هناك نمو صناعي بطيء، ونسبة مستقرة من تزايد السكان، ودولة قوامها أصحاب الريع المفضلين لاستثمار أموالهم بالخارج والزاخرة بممتلكات امبراطورية استعمارية كبيرة تكاد لا تحافظ على انسجامها الا بشق الانفس. وفي هذه الجهة، هناك رأسمالية فتية وقوية تحتل المرتبة الاولى وتطوف العالم سعيا وراء المستعمرات. ولم يكن بامكان الامبريالية الالمانية أن تطرح مسألة احتمال غزو المستعمرات الانجليزية. ولهذا، اذا ما استثنينا تركيا الاسيوية، فانه ما كان لسعارها الجامح أن ينصب الا على الممتلكات الفرنسية. وتسمح هذه الممتلكات ايضا بأغراء ايطاليا بامكانية تعويضها على حساب فرنسا، في الحالة التي تشعر فيها بأن أطماع المانيا في احتلال البلقان تغبنها. كما تمكن من استدراجها الى حلف ثلاثي باشراكها في مشروع مشترك.

فمن الواضح أن أطماع المانيا في المغرب كانت تقلق الامبريالية الفرنسية الى أقصى حد، خصوصا اذا تصورنا أن المانيا بحلولها بالمغرب سيكون بامكانها دائما أن تضرم النار في كل أرجاء الامبراطورية الفرنسية بشمال أفريقيا وذلك بتقديم السلاح الى سكان هذه المنطقة الذين يعيشون حربا مزمنة ضد الغزاة الفرنسيين. واذا ما تم التوصل الى تسوية وقبلت المانيا العدول عن أطماعها. فان ما تم استبعاده هو الخطر الفوري، في حين لا زال قلق فرنسا العام مستمرا والشنئان السياسي قائما.

إن السياسة المغربية لالمانيا لا تجر هذه الاخيرة الى نزاع مع فرنسا فحسب، بل تجرها ايضا الى صدام مع انجلترا. فبما أن جبل طارق هو ثاني أهم ملتقى طرق في السياسة العالمية

لانجلترا، فان وصول الامبريالية الالمانية المفاجىء الى المغرب على مقربة من جبل طارق والاطماع التي تظهرها والطابع العنيف لطريقتها في العمل، لن يرى فيه الانجليز الا تمظهرا عدائيا موجها ضدهم. وعلى المستوى الشكلي أيضا، هاجمت أول مذكرة احتجاج المانية مباشرة الاتفاق الحاصل سنة 1904 بين فرنسا وانجلترا بخصوص المغرب واسبانيا. كما أن الشروط الالمانية كانت تميل بوضوح الى ابعاد انجلترا عن تسوية قضية المغرب. ولا يخفى على أحد ما لهذا الموقف حتما من أثر على العلاقات الانجليزية ــ الالمانية.

III

الأممية الثالثة وحرب تحرير الريف

إن نصوص الاممية الثالثة متعددة. ولقد أجري احصاء شامل لهذه النصوص من قبل Colletti Pischel و Robertazzi في مؤلفهما «الاممية الشيوعية والمشاكل الاستعمارية 1919 — 1935 »(1). والنصوص المنشورة هنا هي كالتالي : توجيهات الاممية الشيوعية (النص الاول)، خطاب ستالين وزينوفييف (النص الثاني والثالث)، مواقف المنظمات الشيوعية الفرنسية والاسبانية (النص الرابع والخامس) والكتابات الشخصية لعلي كال فولادي وسان جاك (النص السادس والسابع). وترسم هذه النصوص في مجموعها، على مختلف المستويات، الاوجه الاساسية من التموقفات الشيوعية بخصوص كفاح الريفيين.

ونشير مع ذلك الى أن النصوص الصادرة عن المحافل الرسمية للاممية الثالثة والمنظمات المنضوية تحت لوائها تفرد مكانة مهمة لمخاطر الحرب العالمية التي تنم عنها المسألة الريفية. وعلى الرغم من أن هذا الجانب ليس غائبا تماما عن نصوص فولادي وسان جاك (النص السادس والسابع)، فاننا نجد مسألة طبيعية الثورة الريفية وحدودها مطروحة بوضوح مع بعض الاشارات النادرة الى التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية المغربية.

(1) انظر
Collotti Pischel (E) et Robertazzi (Ch): L'Internationale communiste et les problèmes coloniaux; 1919—1935, Mouton, Paris-La Haye, 1968.

1) نداء المكتب الشرقي للجهاز التنفيذي للأممية الشيوعية (2)

شنت حكومة بريان كايو بان لوفي Painlevé - Briand - Caillaux بالمغرب حربا أعدها منذ شهور هيريو Herriot باتفاق مع المقيم العام ليوطي Lyautey وبدا أن امبريالية كتلة اليسار المتسترة وراء إشارات السلام الرمزية، لا تقل خطورة عن امبريالية الكتلة الوطنية. إنه السباق الجامح من أجل غزو الأسواق والاستيلاء على الثروات دوما. وهو سباق لا يستفيد منه إلا الرأسماليون، ويؤدي ضريبته العمال والفلاحون الكادحون (3).

لقد ووجهت عروض التفاوض التي تقدم بها عبد الكريم بالرفض المطلق من طرف ليوطي وهيريو اللذان نظما حصار الريف لاستدراج عبد الكريم فيما بعد الى كمين ورغة (4).

لقد كانت أحداث المغرب لسنة 1907 و1911، وضربة أكادير إرهاصات تنبىء بالمذبحة الكبيرة لسنوات 1914 — 1918. ولا زالت حملة اللصوصية التي تقودها اليوم فرنسا ضد الريف، تحمل عناصر من شأنها أن تولد تعقيدات دولية خطيرة. ففرنسا وإسبانيا ليسا وحدهما المعنيين بنهب المغرب، بل يضاف إليهما ايطاليا وانجلترا. ففرنسا لاتنتظر إلا اندحار إسبانيا للاستيلاء على إقليم الريف على حسابها. وكما حدث سنة 1914، بدأ الحديث عن هيبة فرنسا التي هاجمها الريفيون. وأعلن من جديد أن هؤلاء هم الذين بادروا بالهجوم وليست فرنسا المسالمة. أما ايطاليا وانجلترا فتتحينان الفرصة المناسبة للمطالبة بنصيبهما من

(2) انظر

Contre la guerre du Rif, **la correspondance Internationale,** n°61, 13 Juin 1925, pp. 503—504. Le texte est signé par Semard, Katayama, Nin, Berty, Kolalov.

(3) حملت الانتخابات التشريعية ليونيو 1924 ائتلافا جديدا الى سدة الحكم بفرنسا، يدعى كارتل اليسار ويتكون من الاشتراكيين والراديكاليين الاشتراكيين. وسوف لن يشارك الاشتراكيون في الحكومة غير أنهم سيؤيدون الحكومة الراديكالية الاشتراكية التي يرأسها هيريو.

ولدى حكومة كارتل اليسار وجد ليوطي الدعم الأكيد. انظر حول هذا الجانب.

G.A.Julien, **Le Maroc face aux impérialismes 1415—1956,** Editions Jeune Affrique, Paris 1978, pp.124—125.

(4) شن الريفيون هجوما يوم 16 أبريل 1925 واستولوا على المراكز الواقعة في ورغة العليا. وفسرت أسباب هذا الهجوم بشكل متباين : فهل كان التدخل راجعا إلى مغالاة عبد الكريم كما كان يدعى دائما الى خطأ في التقدير. وهل دفعته الحملة التي قادها الحزب الشيوعي الفرنسي الى الاعتقاد بإمكانية إجراء تغييرات حاسمة ؟ انظر

Ageron C.R. **Les socialistes français et la guerre du Rif,** Abdelkrim et la République du Rif, Actes du colloque de 1973, Maspéro, 1976, pp.291 — 292.

أم هو الطمع في أراضي المعمرين ؟ أم أن هذا التدخل مجرد فخ ؟ انظر.

Labadie-lagrave H, **Le mensonge marocain : contribution à l'histoire vraie du Maroc,** Casablanca, 1925, p.411.

الغنيمة باسم حظوتهما الوطنية (5). وهكذا أشعلت من جديد الامبريالية الفرنسية بالمغرب سنة 1925 فتيل الحريق الذي قد يؤدي الى تعقيدات دولية خطيرة. إنها الحرب الامبريالية الموجهة ضد الشعب المقهور. إنها الحرب ضد استقلال الشعوب المقهورة على يد الامبرياليين الفرنسيين والانجليز والايطاليين والاسبان... الخ.

أما الريفيون، فبدفاعهم عن أنفسهم، إنما يكافحون فقط من أجل استقلالهم باسم حق الشعوب في تقرير مصيرها. أما كتلة اليسار الديموقراطي التي تقدمت للعمال والفلاحين بصفتها مدافعا عن السلم في العالم، فقد جلبت الحرب للمغرب لاشباع المرامي الاستعمارية لرجال المال ولجنة المسابك.

إن القادة الاشتراكيين المنتمين الى هذه الكتلة والمساندين للحكومة، بعد تواطئهم مع هيريو في إعداد الحرب، هاهم يتواطأون مع بان لوفي Painlevé بشنها وإبقاء نارها مستعرة. وبقوا كما كانوا سنة 1914، يوفرون بايديولوجيتهم غطاء للمغامرات الامبريالية لكتلة اليسار، وهي مغامرات تدعي الجنوح للسلم، غير أنها تحبل بالتعقيدات الدولية ويساعدون على نشر الأكاذيب حول الطبيعة السلمية والمحلية للأعمال الجديدة بالمغرب. ولاخفاء تخاذلاتهم الجديدة يتظاهرون بجهل الحقيقة مستفسرين الحكومة. غير أنهم في نفس الوقت يعدون معها دون تردد جدول أعمال يطالب بمواصلة الجهد العسكري لتعقب جنود عبد الكريم وراء الحدود التي رسمتها الحماية والتي يعلمون أنها غير موجودة.

إنهم دعاة الحرب حتى النهاية، كما كانوا في سنوات 1914 — 1918. وهكذا تحقق الحلف المقدس من جديد، إذ اتفق رونوديل Renaudel وجوهو Jouhaux مع بريان Briand ولوشور Loucheur على مطاردة الريفيين خارج إقليم المغرب الفرنسي. فهؤلاء منفذوا المخططات الامبريالية الرجعية للكتلة الوطنية. وإذا كان الديمقراطيون والاشتراكيون الديمقراطيون في كتلة اليسار لا يجاهرون مثلهم بضرورة السحق الشامل للريفيين، فإنما ذلك تكتيكا منهم لتضليل

(5) فيما يتعلق بالتنافسات الدولية، تعيد مقالات **La correspondance Internationale** نفس التأويلات. انظر على سبيل المثال مقال

R.Irandoust, «Le Rif, clé de la Méditerranée», **la correspondance internationale.** n°83, 5e année, 26 août 1925.

وللاطلاع على تحليل أكثر عمقا انظر :

G.Ayache, **Les implications internationales de la guerre du Rif** (1921—1926) in Hesperis Tamuda, vol. XV, 1974 (1977) p. 181—224, et Miège (J.L), **Introduction historique: Les relations internationales** (Colloque Abdekrim, pp. 25-32)

الجماهير العريضة من العمال والفلاحين المناهضين للحرب. ويتجرأ هؤلاء المشعوذون المجرمون على التحدث عن السلم والوئام في وقت تسفك فيه دماء العمال والفلاحين الفرنسيين، وتمتزج بدماء الريفيين الذين يدافعون عن ممتلكاتهم المهددة من قبل الامبرياليتين الفرنسية والاسبانية.

إن حرب المغرب ستكون أطول وأشد فتكا. وستتسبب في نزاعات جديدة وتعقيدات دولية بين الامبرياليات المتناحرة. وستعترض انجلترا بكل الوسائل على إنشاء جبل طارق فرنسي على السواحل المحتلة من الريف، وستكيد لها لدى إسبانيا التي تعارض هي الأخرى كل توغل فرنسي في الريف لمنع إي اتفاق بين البلدين. أما الامبريالية الايطالية، فإنها ستستغل الأحداث للمطالبة بتونس وتندد بالمرامي الفرنسية للتمويه على مطامحها في التوسع الاستعماري ولاخفاء الاستعدادات التي تباشرها لهذا الغرض في ليبيا. وبسبب التعقيدات ذات الطابع الدولي، أكدت حكومة كتلة اليسار بأنها ستكتفي بمطاردة عبد الكريم خارج منطقة الحماية والدفاع عن حدودها. والحقيقة أن الحرب سوف تستمر بإحكام الحصار بغية إبادة الريفيين بتجويعهم ودفعهم الى الخضوع واحتلال أرضهم.

ذلكم هو السلم الذي يحلم به الديمقراطيون والاشتراكيون الديمقراطيون في كتلة اليسار. إذ أن سياستهم الاستعمارية لا تختلف في شيء، من حيث العمق، عن سياسة الكتلة الوطنية، فسيرا على درب هذه الأخيرة، قاموا بالاعداد للحرب، وهاهم يخوضون اليوم حرب المغرب، سيواصلونها حتى النهاية. ولربما تتسبب هذه الحرب في حرب عالمية جديدة أشد رعبا من حرب 1914 ــ 1918 بسيل من الدماء وآلاف الجثث ودمار خارق.

أيها العمال والفلاحون الفرنسيون !

إن أهوال الحرب السابقة لن تكون شيئا يذكر أمام ما يمكن أن تغرق فيه العالم الامبريالية والعسكراتية الاجرامية. ولن يقتصر الأمر على ما لا يعد ولا يحصى من الضحايا، بل إن صانعي الآليات سيكدسون في خزائنهم الملايين تلو الملايين المبددة هدرا من جديد. وسيثقل كاهلكم حتما بضرائب جديدة.

يا عمال ويا فلاحي اسبانيا !

لقد أرسلت الامبريالية الفرنسية مبعوثها الى اسبانيا بغية توريط بلدكم من جديد في حرب اجرامية بالمغرب. ولقد سبق للجنود الاسبان أن تآخوا مع الريفيين. وسيعيدون الكرة عند الحاجة. فواجبكم مظافرة جهودكم بجهود عمال وفلاحي فرنسا في الكفاح المشترك ضد الحرب ومن أجل السلم والجلاء عن المغرب.

ياعمال ويافلاحي ايطاليا !

إن البروليتاريا الفرنسية لن تدّخر وسعا لبذل المقاومة الشعبية ضد حرب اللصوصية التي تخوضها حكومتها. وواجبكم هو الحيلولة دون استفحال الحريق. فحكومتكم، حكومة الفاشيستي موسوليني، مستعدة لانعاش أمجادها الذابلة بالغزو. وبتحالفكم مع البروليتاريا الفرنسية، ستمنعوا حكومتكم من اقتراف هذه الجريمة الجديدة.

أيها الرفاق، أيها العمال والفلاحون !

إن الأممية الشيوعية تنبهكم الى الخطر وتحذركم من الغوائل. وعليكم المعتمد وحدكم لايقاف هذه المذبحة، فتجمعوا ونظموا أنفسكم بإحكام وارفعوا عقيرتكم بالاحتجاج حتى تتراجع حكوماتكم المجرمة، وتهرع الى عقد السلم مع الريفيين.

أيها العمال والفلاحون ! لنقف جميعا ضد الحرب.

عاش تآخي الجنود الفرنسيين مع الريفيين من أجل سلم عاجل.

عاش الاستقلال التام للشعوب المستعمرة.

ولتسقط الحرب الامبريالية بالمغرب.

2) ستالين : الجبهة الموحدة الوطنية (6)

... إن بلدان الشرق الأخرى المستعمرة أو التابعة للقوى الامبريالية الكبرى ترزح تحت نير مزدوج، نير بورجوازيتها ونير المركز الامبريالي. وفي بعض هذه البلدان، تنمو الرأسمالية بسرعة مولدة طبقة بروليتارية من الأهالي، كما هو الأمر بالنسبة للهند. وعندما تكبر فيها الحركة الثورية، تنقسم البورجوازية على نفسها، إذ تصبح شرائحها السفلى ثورية، وتميل شرائحها العليا الى التسوية والتفاهم مع الامبرياليين. وهكذا تنشأ في الأخير، في مواجهة هذه الكتلة القائمة على هذه الشاكلة، كتلة أخرى هي كتلة العمال والطبقات المتوسطة الثورية. فتطرح مسألة سيادة البروليتاريا وتحرر الجماهير الشعبية من تأثير البورجوازية الوطنية بحدة متزايدة. وتساهم هذه الظروف في ترسيخ اتحاد الحركة الوطنية الثورية في هذه البلدان مع الحركة البروليتارية لدول أوروبا المتقدمة.

وها هي النتائج المستخلصة من هذه النظرة الشمولية :

- ☐ إن تحرر شعوب المستعمرات والبلدان التابعة لن يتأتى إلا بثورة مظفرة.
- ☐ مع تقدم الحركة الثورية في المستعمرات لا يتيسر إلا بعزل البورجوازية الوطنية الميالة

(6) مقتطف من محاضرة ستالين أمام طلبة جامعة شعوب الشرق (موسكو 18 ماي 1965) والمنشورة في :
La correspondance internationale, n 56, 30 mai 1925, p. 455, sous le titre: Pour l'émancipation des peuples opprimés des colonies.

الى التفاهم مع الامبريالية، وفك ارتباط الطبقات الوسطى بهذه البورجوازية، وسيادة البروليتاريا، وانتظام العناصر المتقدمة من الطبقة الكادحة في حزب شيوعي.

ـ لا يمكن إحراز النصر التام لحركة التحرر بالمستعمرات إلا بالاتحاد الوثيق والحي مع الحركة العمالية في بلدان الغرب المتقدمة (7) وعندما لا يكون لدى بورجوازية الأهالي أية دواعي للانقسام الى تيارات ثورية وأخرى توفيقية، كما هو الحال في المغرب، فإنه يتعين على العناصر الشيوعية أن تعمل على توحيد الجبهة الوطنية ضد الامبريالية، فبلورة حزب شيوعي لا تحدث إلا في غمرة الكفاح، وبالخصوص عقب الانتصارات العسكرية للثورة الوطنية على الامبريالية (8).

وعندما تنقسم البورجوازية الوطنية على نفسها كما هو الأمر في الصين ومصر، دون أن يكون في مقدور العناصر التوفيقية التحالف مع الامبريالية الأجنبية، فإنه لا يمكن للشيوعيين أن يضعوا نصب أعينهم وحدة الجبهة الوطنية، بل يجب أن تتجه سياستهم نحو تحقيق الكتلة الثورية للعمال والطبقات المتوسطة. ويمكن لهذه الكتلة أن تأخذ شكل حزب وحيد ــ وهو أمر يذكرنا به الكوميندان الصيني ــ شريطة أن يجمع في الواقع حزبين مختلفين أحدهما شيوعي الآخر من البورجوازية الصغيرة الثورية. ومهمة الكتلة هي، في آن واحد، محاربة الامبريالية وفضح لعبة البورجوازية الوطنية. وإن حزبا كبيرا هذا تكوينه لمفيد وضروري، شريطة أن لا يقيد من حرية حركة واستقطاب الحزب الشيوعي البروليتاري، وإلا فإنه لن يزرع إلا الغموض والارتباك في صفوف الكادحين وذلك بإفساده، للعناصر الشيوعية.

لقد تفاهمت البورجوازية المحلية في الهند الانجليزية مع الامبريالية الأجنبية. ونظرا لشدة خشيتها من الثورة أكثر من كراهيتها للامبريالية الانجليزية، أصبحت هذه البورجوازية رجعية

(7) يندرج هذا النص في التقليد الذي سارت عليه التوجيهات الاستراتيجية للأممية الشيوعية بشأن نموذج كتلة أو جبهة العمال ــ الفلاحين.

وخلال المؤتمر الثاني، تأكدت أطروحة لينين والقاضية بوجوب التخلي عن هيمنة الحركة الثورية في الغرب. انظر
Carrère d'Encausse (Hélène) et Schram (Stuart), **Le Marxisme et l'Asie**, Paris. A Colin, Collection «U», 1965, pp. 195 et s.

وفي سنة 1964، اكتست المسألة الاستعمارية أهمية أكبر. وأكد زينوفيف وبوخارين على الدور الحاسم لاسيا والمستعمرات في أفق الثورة العالمية. في حين مال ستالين الى توسيع مذهب الكتلة أو الجبهة الموحدة من العمال والفلاحين. فنادى بتجمع جماهير الفلاحين، بل والتعاون على الخصوص مع العناصر الوطنية : «فالطابع الثوري أو الجمهوري للحركة، ووجود قاعدة ديموقراطية للحركة. وكفاح الأمير الأفغاني من أجل الاستقلال أفغانستان كفاح ثوري موضوعيا، على الرغم من البنية الملكية لمفاهيم العدو، لأنه يفكك الامبريالية ويقوضها» (ستالين «الماركسية والمسألة الوطنية والاستعمارية»، ص 182). وانظر إدانته أيضا سنة 1925 للحزب الشيوعي الاندونيسي لعدم قبوله انشاء جبهة مع الوطنيين البورجوازيين. انظر.
Communisme International, n°s 18—19, 1926.

(8) فيما يتعلق بالمغرب، تعد الجبهة الموحدة المتحدث عنها هنا إشكالية، لانعدام الطبقة العاملة والعناصر الشيوعية، عندها، تبدو غريبة تلك الشعارات المرفوعة كشعار L'Humanité (فاتح يونيو 1925) «عاش العلم الاحمر لجمهورية الريف».

عنوة. ولن يتأتى النصر للثورة الوطنية إلا بدحر الائتلاف المكون من البورجوازية المحلية والامبريالية الأجنبية. وفي أوضاع كهاته، يتعين على البروليتاريا أن تقود وتتزعم حركة التحرر، إذ لا يمكن للكتلة المناهضة للامبريالية أن تأخذ شكل حزب وحيد، ذلك أن الاستقلال التام للحزب الشيوعي يأتي في المرتبة الأولى من الأهمية. ولا يمكن الاعداد لسيادة البروليتاريا إلا على يد الحزب الشيوعي. وغني عن القول أن الحزب الشيوعي يمكنه ويتعين عليه أن يتّحدد مع اليسار الثوري للبورجوازية لعزل الرأسماليين والملاك المحليين المخلصين للامبريالية، لقيادة الملايين من العمال في المدن والقرى الى الكفاح...

3) زينوفيف : حول موقف الاشتراكيين (9)

لقد وقعت في أجزاء من العالم أحداث بالغة الأهمية تنبىء باضطرابات مقبلة. ومن بين هذه الأحداث الحرب الجارية بالمغرب. وهي حرب استعمارية بالدرجة الأولى، ولا تهم إلا قوتين في هذه اللحظة. غير أنه في هذا الصراع ذي الأهمية الضئيلة نسبيا، بدأت ترتسم ملامح أحداث مهمة ستظهر في المستقبل القريب.

وتوجد من بين أوراق الرفيق لينين مذكرة كتبها قبل وفاته بزمن قليل، يتنبأ فيها بأنه سيكون علينا أن نتوقع في الحقبة 1925 ــ 1928 حربا عالمية جديدة أشد هولا من حرب 1914 ــ 1917 وأكثر فتكا بالضحايا بما يزيد عن خمسة الى عشرة أضعاف (10). وتؤكد الأحداث الراهنة نبوءة لينين. فالحكومة الفرنسية المحكومة حاليا من قبل كارتل اليسار الذي يساهم فيه المناشفة الفرنسيون، تخوض حربا لا غاية من ورائها سوى نهب شعب صغير. فبعد تجارب الحرب العالمية، كنا نعتقد بأن المناشفة سيظهرون نوعا من الرزانة في تعاملهم مع هذه المغامرة الاستعمارية الجديدة. إلا أن الحزب الاشتراكي الفرنسي الحاكم حاليا، كان له من الجرأة ما جعله يتصرف تماما كما تصرفت المنشفية الدولية في بداية الحرب العالمية. وهكذا نقف

(9) خطاب ألقي يوم 11 يونيو 1925 في اجتماع للمنظمة الشيوعية Krassaia Presnia (موسكو) وتعلق بأحداث الريف والصين، ونشر في جزئين في Correspondance Internationale تحت عنوان «المغرب وشنغهاي» ويتعلق الجزء الأول بالمغرب، انظر :

La Correspondance Internationale du 24 Juin 1925, pp. 527—528.

أما الجزء الثاني فيخص الصين انظر المصدر السابق، 27 يونيو 1925، الصفحات 535 ــ 538.

(10) سنرى بأن زينوفيف الذي كان انذاك شخصية مهمة في الأممية الشيوعية، يؤكد أساسا، طيلة تدخله، على مخاطر الحرب التي تنطوي عليها أحداث الريف. ولقد تطورت انتقادات موقف الاشتراكيين باسم مناهضة الحرب. («ضد وحشية البورجوازيات الغربية» و«مشاريعها التخريبية» وضد «المعاناة» والخسائر الكبيرة في الأرواح البشرية»).

أما الجزء المتعلق بالصين، فإنه يؤكد الطابع الارهاصي لأحداث 1925 التي تنبىء بصراعات قادمة في الشرق، كما يؤكد على وحدة العمالية وحركة التحرر الوطني، وعلاقة تحرر الشعوب المقهورة بالثورة البروليتارية العالمية.

على نفس الخداع ونفس حشو الدماغ، ونفس الخطب المنافقة حول الدفاع الوطني ونفس العون المقدم للبورجوازية.

ففي بداية الحرب العالمية، لم نكن نرى بجلاء ولم نكن نتبين فورا من أي جانب انطلقت أول طلقة نارية. وكانت الوضعية معقدة جدا.

أما هذه المرة، فإننا نعرف ما يجري بالمغرب. ولا يمكن الاختلاف حول أسباب هذه الحرب وطابعها. فمن جهة، هناك شعب صغير، ومن جهة أخرى، هناك قوة امبريالية هائلة تهاجم الأضعف وتدشن بعملها هذا مرحلة جديدة من النزاعات الدولية. ففي غشت 1914 تم التذرع بالدفاع عن الحضارة والديموقراطية ضد عدوان روسيا القيصرية. واليوم نقف على عمل من أعمال اللصوصية الصرفة التي لا يخفى هدفها على أحد. فلم يعد الأمر يتعلق بالدفاع عن الديموقراطية وعن الحضارة وإنقاذ أوروبا من وحشية القياصرة وشعبهم، بل لم يعد يتعلق إلا بما يلي : إن الامبريالية الفرنسية لم تشف غليلها وترغب في غزو أقاليم جديدة على حساب الشعب الريفي الصغير. وفي سنة 1925، بعد انتصار كارتل اليسار على بوانكاري Poincaré، وهو النصر الذي فتح — على ما يزعم — مرحلة جديدة من الديموقراطية والجنوح للسلم، أرسلت البورجوازية الفرنسية الجنود الى المغرب وشنت حربا جديدة.

لقد نوقشت بحدة في فرنسا أحداث المغرب. وعرض الممثلون البارزون للأحزاب السياسية وجهة نظرهم حول حرب المغرب (11) في الصحافة ومن أعلى منبر البرلمان. ويهمنا كثيرا أن نعرف المواقف التي اتخذها بهذه المناسبة قادة الحزب والنقابات المنشفية والنقابيون نصف المناشفة. وسأسرد فقرات من تصريحات رونوديل زعيم الحزب المنشفي الفرنسي المعترف به وجوهو رئيس النقابات الاصلاحية. وهاكم ما يقول رونوديل :

«بأية وسائل ترجو الحكومة إنهاء العمليات العسكرية وإقامة السلم بالمغرب ؟ فمنذ بداية احتلال المغرب، ألح الحزب الاشتراكي على المخاطر التي ستنجم عنه. فمن الذي يتحمل مسؤولية النزاع الحالي ؟ لقد هاجمونا (وكما ترون فإن فرنسا هي التي هوجمت !!)، لكن من الذي تسبب في هذه الاعتداءات ؟ إن انتقاداتي لا تعطيكم الحق في الاعتقاد بأننا انهزاميون. (لا الحقيقة أنهم لا يستحقون هذا اللوم !!) فالحزب الاشتراكي لا يطلب الجلاء عن المغرب، لكنه لن يقبل خوض حرب من أجل الأمجاد. تلكم الحرب التي قد تأتي على زهرة الشباب الفرنسي».

(11) انظر Isoard (P), **La guerre du Rif et le Parlement français,** colloque Abdelkrim précité, pp. 175—208.

ويعلن رونوديل بأن برلمان 1925 غير مستعد لقبول كل شيء والتزام الصمت كما فعل برلمان. 1924 (12).

«إننا نطلب من رئيس الوزراء (ماذا تظنون أنه يطلب ؟) أن يأمر السلطات العسكرية بأن تنجز تقارير مفصلة عن سير العمليات العسكرية. فلقد شن العدو هجوما يوم 18 أبريل، غير أننا لا نعرف عنه شيئا هنا في فرنسا (13)».

ويطلب رونوديل عدد الجنود الفرنسيين بالمغرب، وماهي الخسائر التي تكبدوها. فمستشفيات الدار البيضاء ــ حسب قوله ــ تعج بالجرحى. وعما قريب لن يكون هناك مكان لجرحى جدد. ثم يعرب عن ارتياحه للوعد الذي قطعه بان لوفي على نفسه بوقف العمليات العسكرية بمجرد ما يسترجع الجنود الفرنسيون مواقعهم السابقة. وفي الأخير يعثر على هذه الحجة الدامغة ضد الحرب.

«إن الأمر يتعلق بمصالح فرنسا. ففي الوقت الراهن الذي تحتاج فيه فرنسا الى اليد العاملة، لن نقبل تضحيات جديدة بالمغرب».

إنه لعمري عين الصواب ! فلو لم تكن فرنسا في حاجة الى اليد العاملة، لما كان الأمر فظيعا، ولكان بإمكان المستشفيات أن تكتظ بالجرحى دون أن يرى المناشفة في ذلك غضاضة. لكن، بما أنه ليست هناك بطالة في فرنسا حاليا، بل إن هناك نقصا في اليد العاملة، فإن المناشفة الفرنسيين يعارضون أية إراقة جديدة للدماء. فلكم هي وجهة نظر ممثل الحزب (الاشتراكي) الفرنسي، وجهة نطر خائن واشتراكي شوفيني.

ورأي جوهو، رئيس النقابات الاصلاحية، لايقل أهمية، فلقد انتقل النقابيون الذين كانوا يشكلون يسار الحركة العمالية الفرنسية قبل الحرب الى معسكر البورجوازية، شأنهم في ذلك شأن المناشفة. فما هو موقفهم من أحداث المغرب ؟ يبدأ جوهو بمهاجمة الامبريالية، فهل تصدقون ؟ كلا، بالطبع. فلقد استهل بمهاجمة الشيوعيين قائلا : «إن الدولانية المزعومة لقادة الخط الدولي ليست إلا دعوة للوطنية الضيقة. فالعمال لم يعودوا يستجيبون لها، كما أنهم

(12) فيما يتعلق بقضية الريف، سيتغير موقف الحزب الاشتراكي سنة 1965 من دعم الحكومة مدة ثلاثة أشهر الى الامتناع عن التصويت مدة خمسة أشهر، الى المعارضة الى جانب الشيوعيين، انظر.

Isoard (P), art. précité, et Ageron (C.P), **Les socialistes français et la guerre du Rif,** colloque précité, pp.273—292.

(13) انظر مناقشات مجلس النواب ليوم 4 فبراير 1925 (الجريدة الرسمية ليوم 5 فبراير، ص 557 وما يليها) وليوم 5 فبراير 1925 (الجريدة الرسمية ليوم 6 فبراير، ص 580 وما يليها) ثم جلسة 25 ماي ج.ر. ليوم 26 ماي، ص 2381، «طلب مساءلة بيار رونوديل» حول الظروف التي ترجو فيها الحكومة الانهاء المبكر للأحداث العسكرية وإقامة جو سليم بالمغرب». وكذلك طلب المساءلة ليوم 27 ماي 1926، ج.ر. ليوم 28 ماي، والمتعلق «بالوضعية بالمغرب والمفاوضات مع اسبانيا بغية إقامة السلام في الريف».

ليسوا مستعدين لترك أمرهم بيد أولئك الذين يريدون توسيع أسس المغامرة أو الذين يحلمون بفتوحات جديدة. إن الطبقة العاملة في بلدنا لتحتج بشدة على كل توسيع للعمليات العسكرية في المنطقة الاسبانية» (14).

لقد قاوم الشعب الريفي الصغير بالمغرب البورجوازية الاسبانية والفرنسية. وعندما توقف القتال في المنطقة الاسبانية، أرسل كارتل اليسار النائب مالفي Malvy الى اسبانيا لدفع الحكومة الاسبانية الى استئناف العمليات العسكرية. ففي هذه اللحظة التي يتعين فيها استهجان القراصنة الرأسماليين بقوة لمهاجمتهم شعبا صغيرا واستعدادهم لشن حرب أوروبية جديدة بغية المحافظة على غنيمتهم، لا يجد المناشفة، الذين يدعون تمثيل البروليتاريا، أمامهم إلا تدنيس الأممية الثالثة، ورفع شعار : لا نرغب في توسيع العمليات العسكرية الهادفة الى نقلها الى المنطقة الاسبانية.

لقد مرت عشر سنوات على بداية الحرب العالمية الأولى. ودفع عشرة ملايين رجل أرواحهم ثمنا لاطماع الامبرياليين الجامحة. وكانت فرنسا، من بين البلدان كلها، أكثر البلدان تضررا من الحرب. فليست هناك قرية فرنسية واحدة يتساوى فيها عدد الرجال بعدد النساء. ولا زالت البادية الفرنسية مدمرة بفعل الحرب..وفي أول محاولة من الرأسماليين لمعاودة الحرب، يقوم المناشفة بنفس الاشارات ويكررون نفس الخطب كما فعلوا سنة 1914. وهذا ما يعطينا فكرة عما ستقوم به الأممية الثالثة لو أن حربا جديدة تنشب غدا. ويستنتج من هذا المثال الصغير أن البورجوازية والاشتراكية الديموقراطية لا يشكلان إلا جبهة واحدة في كل المسائل المهمة، وإنه لن يتأتى الانتصار على البورجوازية ما لم يقض على الخونة في الأممية الثالثة.

غير أنه بذات الوقت، أيها الرفاق، كانت حرب المغرب بمثابة امتحان للقوى الجديدة التي تشكلت في السنوات الأخيرة. ففي سنة 1914 لم يكن في فرنسا أي شخص يجرؤ على رفع صوته ضد الحرب. ولم نسمع الاحتجاجات الأولى إلا سنة 1915. إلا أن الرجال الذين

(14) عندما قرر الحزب الشيوعي الفرنسي شن إضراب عام لمدة 24 ساعة يوم 12 أكتوبر، أدان جوهو محاولة الالتفاف، هذه، ورفض الحركة، انظر بهذا الصدد.

La résolution de la commission administrative de la C.G.T publiée dan la vie ouvrière du 25 septembre 1925.

أما بخصوص محاولات الشيوعيين انشاء جبهة موحدة مع العمال الاشتراكيين، فانظر :

Le Guennec (N): Le Parti communiste français et la guerre du Rif dans **Le Mouvement social**, n°78, Janvier-mars 1972, pp.39—64 et les contributions de Charvin et de Galissot sur «le Parti Communiste français et la guerre du Rif», **Colloque Abdelkrim** précité, pp.219—236 et pp.237—261.

نددوا بهذه الجريمة القطعية لم يكن لديهم إلا برنامجاً غامضاً ومشوشاً. وفي ألمانيا كان ليبنخت Liebknecht يناضل وحده واثقا من قوته. وأثبتت أحداث فرنسا الأخيرة بأنه لو حاولت البورجوازية اللجوء الى حرب جديدة لقام الالاف وعشرات الالاف من ليبكنيخت في كل البلدان الأوروبية الكبرى.

إنني سعيد بأن ألاحظ أن الحزب الشيوعي الفرنسي، وهو الحزب القوي الذي ما فتىء يتدعم في السنوات الأخيرة، قد أثبت كونه بهذه المناسبة جديرا بالأممية الشيوعية. إذ وجد بين صفوفه رجالا أسمعوا، من منصة البرلمان، أصوات احتجاجاتهم الاستنكارية، وعبروا عن ازدرائهم للبورجوازية وخدامها المناشفة. وما ينبغي الاشادة به هو ذلكم الرفيق الشاب الذي خرج لتوه من صفوف الشبيبة الشيوعية، الممثل النموذجي للجيل الجديد من القادة الثوريين، والذي تكون في غمرة أحداث السنوات الأخيرة، إنه الرفيق دوريو Doriot الذي أخذ الكلمة باسم الحزب الشيوعي، والقى في البرلمان الفرنسي خطابا رائعا. وبعد خطاب دوريو نشرت الصحيفة المركزية للحزب الشيوعي الألماني مقالا تحت العنوان الوجيه التالي : «ليبكنيخت لم يمت. أجل، إنه لا زال حيا في الجيل العمالي الفتي (15)».

لقد جعل خطاب دوريو رهط البورجوازية وكل المناشفة في حنق لا يتصور. فلقد كانوا يقاطعونه، كما صوتوا على توبيخ في حقه، وقرروا فرض الرقابة عليه على الرغم من كون الخطب البرلمانية تتمتع بنوع من الحصانة طبقا لقوانين الديموقراطية البورجوازية. إلا أن هذا الخطاب الملوم والمصادر أوقع في الشعب صدى قويا، توغل وسيتوغل في الثكنات حتى مع آخر جندي فرنسي.

فهذا العمل الشجاع الذي قام به الرفيق دوريو يعد مثالا صغيرا يبين كيف ستتصرف القوى الجديدة الناشئة في حضن الطبقة الكادحة، لو أن البورجوازية قررت شن حرب امبريالية جديدة على نطاق أوسع. ولقد قامت الديموقراطية الفرنسية التي تحظى بدعم المنشفية، باعتقال المئات من الرفاق. ومن تم سجن العمال الشيوعيين الذين الصقوا على الجدران ملصقات معادية للعسكراتية، ولفقت ضدهم محاكمات جديدة. إنني أقترح أن يقوم جمعنا هذا بإرسال التحيات الأخوية الى كل الرفاق المعتقلين بسبب نضالهم ضد الحرب.

(15) لقد لعب دوريو، المرتد فيما بعد، دورا أساسيا في المعارضة الشيوعية لحرب الريف، انظر جردا لتدخلاته في مداخلة. Isoard (P), **La guerre du Rif et le parlement français», précitée**, pp. 209—215. Voir aussi Bruni (Micheline Boudesep) : **Un communiste face à la guerre du Rif, Jacques Doriot**, mémoire I.E.P. Aix-Marseille II, 1971, 174 p.

4) الحزب الشيوعي الفرنسي : «ضد المأزق المغربي» من جديد (16)

الى عمال وفلاحي فرنسا والمستعمرات.

لقد شنت حكومة كتلة اليسار هجوما كبيرا ضد الريفيين.

وهذه الحرب التي بدأت قد تكون طويلة وفتاكة، لأنها تقابل بين الجنود الفرنسيين المتفوقين بأسلحتهم وبين الريفيين الذين لا يطال الشك في شجاعتهم وإرادتهم القتالية. إن ما نشهده ليس مجرد عملية بوليسية، بل هي حرب يبذل فيها الريفيون كل طاقة يأسهم للدفاع عن أرضهم المحررة من النير الأجنبي، ويستخدم فيها الامبرياليون الفرنسيون كل قواتهم لتصفية الجمهورية المستقلة المنتصرة على الديكتاتور المدريدي بريمو دي ريفيرا Primo de Rivera.

لقد بيتت الامبريالية الفرنسية هذه الحرب وأعدت لها. وعلى الرغم من المزاعم الصفيقة للصحافة الامبريالية العميلة لليوطي، فإن الريف انتهج سياسة سليمة. ولم يمنعه انتصاره على الاسبان من التفكير في السلام، إذ عرضه الريفيون على الاسبان مرارا. ودعوا فرنسا الى التباحث وديا، وقدموا لها عروضا لتحديد الروابط المشتركة ورسم الحدود. وعرضوا عليها التفاوض من أجل السلام. إلا أن الامبريالية الفرنسية وعملاء الأبناك الكبرى وعلى رأسهم ليوطي رفضوا دراسة هذه المقترحات الجديرة بالاحترام. وأجابوا بالتهكمات وسيل من الأكاذيب. والأدهى من هذا، هو أن الجيش الفرنسي بالمغرب تحت القيادة الفعلية لليوطي، تقدم بمواقعه مسافة عشر كيلو مترات الى الشمال، أي في اتجاه الريف، وذلك لعزل الريفيين عن المناطق التي يتبضعون فيها. وهكذا شرعوا في الحصار الغذائي للريف وفي تأليب القبائل ضدهم باستعمال الرشوة والاكراه، وتلك القبائل التي كانت حتى ذلك الحين صديقة لهم أو محايدة. وطيلة سنة كاملة لم يكن لمقترحات عبد الكريم السلمية أي صدى سوى الاستفزازات الوقحة للمرتزق ليوطي.

واليوم حدث ما لا مرد له. وبدأت الحرب. وفي الوقت الذي لا تملك فيه الحكومة قرشا واحدا لاجراء الاصلاحات الاجتماعية، وأصبحت فيه على حافة الافلاس، تخوض من جديد حربا طويلة ومكلفة، ويتوجه الجنود الفرنسيون في حشد غفير الى المقبرة المغربية قادمين من الجزائر وفرنسا والمستعمرات الافريقية الأخرى. فما تبتغيه الامبريالية الفرنسية، المسؤولة وحدها عن الحرب، هو هزم الجمهورية الريفية المقدامة. لماذا ؟ لاشباع الاطماع الشرهة للأبناك الكبرى وتحقيق طموحات العسكريين. وباسم الحضارة، سيتسببون في موت الآلاف من العمال والفلاحين الفرنسيين والمستعمَرين.

(16) انظر :

Semard Paul, **La guerre du Rif**, Librairie de L'Humanité, 1926, pp. 142—143.

وكما حدث في حرب المغرب السابقة، ستجر هذه الأخيرة كل أنواع التعقيدات الدولية، وستطلق العنان لاطماع وطموحات مختلف الامبرياليات. وتفتح من جديد عصر المساومات التي ستتسبب للشعوب في نزاعات جديدة. فمغرب 1907 الذي أنذر بالحرب العالمية لسنة 1914 سيصبح سنة 1925 نذير حروب امبريالية جديدة، إذ ينتاب انجلترا القلق من رؤية الفرنسيين وهم يقتربون من جبل طارق. أما ايطاليا فتحلم بالسيطرة على تونس، وتندد سلفا بالتوغل في الريف. كما أن اسبانيا نفسها قلقة من تواجد الفرنسيين على مقربة من المنطقة التي لا ترغب في مغادرتها.

إن الحزب الشيوعي الذي ندد وحده اطلاقا بمخاطر حرب المغرب ليدعوكم الى النضال بكل ما أوتيتم من قوة لمنع هذه المجزرة الجديدة.

أيها العمال الاشتراكيون !

لاتنسوا أن قادتكم المتنكرين لتقاليد جوريس Jaurés المجيدة والذي ندد دائما «بالمأزق المغربي»، لم يجرؤوا على التصويت ضد اعتمادات حرب المغرب (17) وامتنعوا عن التصويت متخاذلين (18) كما صوتوا على مجموع ميزانية الحرب التي تضم هذه الاعتمادات نفسها. فافضحوا قادتكم وتخلوا عنهم ! وهلموا معنا لنواجه الامبرياليين بجبهة موحدة قوية !

أيها الرفاق !

لقد كلف احتلال المغرب لعمال وفلاحي فرنسا 12.000 قتيل وأربعة ملايير. ودفع الى العبودية الحقيقية بالملايين من الأهالي..ولا يستفيد منه إلا طغمة صغيرة من رجال الأبناك والرأسماليين.

فدعموا وروجوا في كل مكان شعار الحزب الشيوعي :

السلام العاجل مع الريف !

تآخي الجنود الفرنسيين والريفيين !

الجلاء الفوري عن المغرب.

(17) غالبا ما طور جوريس نزعته السليمة الانسانية في كتاباته حول الازمات المغربية. انظر :
Oeuvres de Jean Jaurés, **Pour la Paix. II. La paix menacée** 1903—1906, 476 p.III. Le guêpier marocain 1906—1908, 1933 424p. IV. **Europe incertaine** 1908—1911, 1933, 405 p. Rieder 4 vol.

(18) انظر استدلال الذي يبرر به ليون بلوم امتناع الاشتراكيين عن التصويت على مشروع القانون المحال من طرف الحكومة على المجلسين يوم 9 يوليوز 1966 والقاضي بفتح اعتماد يبلغ 183 مليون فرنك لتغطية النفقات العسكرية في. :
J.O. Débats, Chambre des députés, 10 Juillet 1925, p.3314.

عاش استقلال الشعوب المستعمرة، ولتسقط حرب المغرب، عاش التآخي، عاش الحزب الشيوعي الفرنسي.

اللجنة المركزية للحزب الشيوعي

5) لجنة عمل الشبيبتين الشيوعيتين بفرنسا وإسبانيا : التآخي مع عبد الكريم (19)

لقد أودت حرب المغرب المستمرة منذ عشرين سنة بحياة عشرات الالآف من إخواننا. وكاد تقسيم المغرب، غير ما مرة، أن يدمي العالم. فلقد كانت سياسة الدول الكبرى الامبريالية لما قبل الحرب تستهدف ضم هذه المستعمرة الجديدة. وكانت المانيا وفرنسا وانجلترا واسبانيا يتنافسون للسيطرة عليها. ولتهدئة المطامع الانجليزية عمد الامبرياليون الفرنسيون والاسبان الى جعل مصر من نصيب انجلترا العجوز دون استشارة سكانها. أما ألمانيا فكانت ترغب في الحصول على قسط من المغنم المغربي بأي وجه من الوجوه، فأقصيت مؤقتا بتمكينها من جزء من الكونغو. وبهزيمتها النكراء في الحرب العالمية أزيحت تماما من الصراع من أجل اقتسام العالم. وانتهت الحرب العالمية، إلا أن الصراع بالمغرب لا زال مستمرا. ولم يبق في الساحة إلا فرنسا وإسبانيا.

غير أن الشعب المغربي الذي لم يستشر أبدا، والذي أريد له انتزاع ما يزخر به باطن أرضه من معادن النحاس والفحم والحديد، وبناء معامل على أرضه لاستغلاله أكثر مما يستغل الفرنسي أضعافا مضاعفة، وتصدير رؤوس الأموال إليه لجني أرباح فاحشة، ونزع ملكية الحقول الشاسعة منه، تلك الحقول التي كان يزرعها قمحا في أمان ويرعى فيها قطعان أغنامه لضمان حياة يسيرة، هذا الشعب لم يرض أبدا بالرضوخ لوصاية رأسمالي فرنسا وإسبانيا ورجال الأبناك بباريس ومدريد وصناعي كروزو Creusot وبرشلونة.

فلقد أريد تسخيره منذ عشرين سنة. فانبرى يدافع عن نفسه بشجاعة ولم يتراجع لا أمام الجيوش المتفوقة على جيشه عشرات المرات، وأمام جحافل الرجال التي تتجاوز عدد أفراد قبائله. فموقفه خليق بموقف الشعوب التاريخية التي كافحت، على مر التاريخ، من أجل قضايا عادلة. وفي حالة المغرب المتأخرة اقتصاديا، يمكن أن نقارنه بكفاح الفلاحين الفرنسيين ضد الأسياد سنة 1789، وكفاح العمال الروس وهم يطردون الرأسماليين من معاملهم وبلدهم سنة 1917.

(19) نداء لجنة عمل الشبيبتين الشيوعيتين لفرنسا واسبانيا ليوم 30 شتنبر 1964 والمنشور في **L'Avant — garde** ليوم فاتح أكتوبر 1964.

إن من حق الشعب العربي مطلقا أن يدافع عن نفسه ضد المغتصبين واللصوص (قطاع الطرق، كما كان يسميهم جوريس) الذين جاءوا لاستعمار المغرب لفائدة عشرات الرأسماليين ورجال الأبناك. وعندما يذود عن نفسه فإنه يفعل ذلك من أجل قضية عادلة. وعندما يكافح من أجل استقلاله فإنه لا يخدم فقط القضية الخاصة بالشعب المغربي. وعندما يكافح ضد الرأسمالية المستغلة لعمال فرنسا وإسبانيا، فإنه يسدي أيضا خدمة جليلة للطبقة الكادحة في هذين البلدين. فأعداء المغاربة هم نفس أعداء العمال الفرنسيين والاسبان، فصناعيو كروزو وبرشلونة يمتصون بفرنسا وإسبانيا دماء عشرات الالآف من العمال، ويعتزمون القيام بنفس الشيء في المغرب. فالكفاح من أجل الاستقلال الوطني للمغرب هو كفاح ضد الرأسمالية العالمية وضد بريمو دي ريفيرا وضد الامبرياليين الفرنسيين. لهذا تبتهج البروليتاريا لانتصارات الشعب المغربي وقائده عبد الكريم على بريمو دي ريفيرا. ويتحمس كادحو فرنسا واسبانيا لاستقلال المغرب. فأكثرهم جرأة خرجوا في مظاهرات بالمدن الكبرى بفرنسا. ففي باريس، اجتمع العمال الاسبان والمغاربة، ووقفوا هاتفين : «عاش الاستقلال التام للمغرب ! عاش الجلاء الفوري عن المغرب الفرنسي والاسباني !».

إن أبناء البورجوازيين المعنيين بالفتوحات الاستعمارية لا يوجدون بالمغرب. إنهم يختبئون بالداخل. ووحدهم أبناء العمال والفلاحين هم الذين يقذف بهم الى هذا الجحيم الذي يسمع فيه كل يوم دوي المدافع وانفجار قنابل الطائرات.

لقد ضحي بكم في هذه الحروب بعشرات الالآف.

فهل من أجل مصلحتكم تقاتلون ؟ وهل ستكونون أكثر حرية عندما تستعبدون شعبا من عدة ملايين من السكان لا يطلب إلا العيش في صداقة مع أولئك الذين لا يرغبون في اضطهاده ؟ لا وألف لا. إن شعبا يضطهد شعبا آخر لا يمكن أن يكون حرا. فهل ترك رأسماليوكم للبروليتاريا حرية أكثر عندما قاتلت لتغزو لهم المستعمرات ؟ ففي كل يوم يقوم الديكتاتور السخيف والأضحوكة بريمو دي ريفيرا بالزج بالعشرات من العمال الثوريين في السجون. وبشكل متزامن مع حملته الاستعمارية على المغاربة، يواصل حملة قمع منهجية ضد العمال والمفكرين الاسبان.

إن البروليتاريا في فرنسا وإسبانيا لا علاقة لها ولا شأن لها بالفتوحات الاستعمارية، وعليها أن تقف في وجهها كما تقف في وجه مشاريع الرجعية الممعنة في القذارة.

يا أبناء العمال والفلاحين ! إنكم كإخوانكم في العمل تحتجون على حرب المغرب. وغداً عندما تعودون الى المعمل والى الحقول سيتعين عليكم أن تؤدوا تكاليف حرب خضتموها.

لقد قيل لكم بأن المغاربة تحذوهم مشاعر العداء تجاهكم، وإنهم من كبار المجرمين ! إنْ هذا إلا افتراء وبهتان. لقد كان عبد الكريم، المنتصر على بريمو دي ريفيرا، رعية طيعة من رعايا اسبانيا الطيعين منذ عدة سنوات. ودفعته تجاوزات المستعمرين في حق الشعب المغربي الى الوقوف في وجه هيمنة كبار أرباب المناجم بالريف. وتلقى من جراء ذلك أقبح الاهانات، كما صفع وجلد على يد أحد ضباط الجيش الاسباني عندما كان يدافع أمامهم بأدب عن مطالب الأهالي. فكيف تريدون ألّا يكن المغاربة الضغينة للهيمنة الأجنبية وهم يعامَلون على هذه الشاكلة. إلا أن كراهيتهم للجنرالات والضباط الذين تأتمرون بأمرهم ولا تحبونهم أنتم أيضا، لا تنسيهم أنكم لستم من طينتهم. فالمغربي يعرف إقامة الفرق بين الضابط والجندي، ويعلم أن لا وجود للمصالح المشتركة بين السيد والعبد.

إن القضية التي يدافع عنها المغاربة هي قضيتكم أيضا. فأنتم أعداء الرأسمالية الفرنسية والاسبانية شأنكم في ذلك شأن عبد الكريم و«الحركات» التابعة له. ولقد أتاح لهزيمة بريمو دي ريفيرا جندي مالقة المنتفض ومضرب برشلونة، كما أتاح لها المغرب المنتصر.

إن ثوريي فرنسا وإسبانيا والشبان الشيوعيين الذين نظموا التآخي في الرورو يقولون لكم إن واجبكم كعمال وفلاحين هو التآخي مع السكان المضطهدين بالمغرب.

إن حملتنا في فرنسا وإسبانيا من أجل الجلاء عن المغرب ما فتئت تنمو كل يوم. وفي كل لحظة تتقوى الاندفاعة العمالية لايقاف الجريمة التي لا تفيد منها إلا مصالح بعض أسماك القرش الرأسمالية.

إن قوة واتحاد العمال والفلاحين والجنود والشعوب المستعمرة ستفرض على رأسماليي فرنسا واسبانيا الجلاء عن المغرب والمستعمرات الأخرى.

عاش الجلاء عن المغرب !
عاش تآخي الجنود الفرنسيين والاسبان والعرب !
عاش الاستقلال التام للمغرب !
ولتسقط الحروب الاستعمارية !

6) علي كمال فولادي : يقظة الشعوب المضطهدة في آسيا وأفريقيا [20]

كادت الحرب العالمية أن تنشب سنة 1911 بسبب المغرب. ولقد قسم مؤتمر الجزيرة الخضراء المغرب بين اسبانيا وفرنسا. وتلقت المانيا وانجلترا وايطاليا تعويضات مهمة لقاء ذلك.

غير أن تلك الأيام الخوالي التي كانت فيها القوى الامبريالية تقرر بحرية في مصير شعوب أفريقيا الشمالية قد ولت. فلقد زعزعت الحرب العالمية بعمق سلطة القوى الامبريالية على الشعوب المستعمرة، وكشفت على التشاكسات التي تمزق العالم الرأسمالي. فوعت الشعوب المستعمرة قوتها وقر عزمها على زعزعة النير الأجنبي. من الصين الى المغرب يكافح ضحايا الامبريالية من أجل استرجاع حريتهم. وهكذا تم اختراق الجبهة الامبريالية.

وفي هذا الكفاح التحرري للشعوب المضطهدة، تفرد مكانة شرفية خاصة لفلاحي الريف الشجعان الذين قاتلوا بعدد يقارب 300.000 مقاتل تحت قيادة عبد الكريم ضد الامبرياليين منذ خمس سنوات. ففي بلدهم الصغير القابع بين المنطقتين الاسبانية والفرنسية، خاض الريفيون حربا ضد جيش الاحتلال الاسباني وكبدوهم في معركة أنوال هزيمة نكراء. كما سجنوا فيلقا كاملا من الجيش. وفي دجنبر 1924 باء الهجومُ الاسباني الجديد بالفشل الذريع تحت القيادة الشخصية للدكتاتور بريمو دي ريفيرا. واضطر الجيش الاسباني الى الانسحاب على عجل الى الشاطىء، ولم يتمكن الدكتاتور بريمو دي ريفيرا من انقاذ ما تبقى إلا بفضل حضور السفن الحربية الاسبانية.

وبينما كان الريفيون يتعقبون الاسبان، شرع المارشال ليوطي في التأهب للهجوم على عبد الكريم وطلب من حكومتيْ بوانكاري وهيريو التعزيزات الضرورية لمباشرة حرب استعمارية، فحصل عليها، واعيا أن الأمر هذه المرة لا يتعلق بحملة تأديبية ضد زعيم إحدى القبائل. فلم يعد عبد الكريم مجرد زعيم قبيلة، بل أصبح يجسد الرغبة القوية للشعوب المقهورة في الحرية. ويتوفر لتحقيق هذا الهدف على جيش مزود بأسلحة عصرية ومسير طبقا لقواعد الاستراتيجية الجديدة. فلقد زوده الرأسماليون الفرنسيون والانجليز بالأسلحة والذخيرة

(20) من حيث العناصر الاخبارية التي يتضمنها، لا يعتبر هذا النص ذا دلالة، بل يمكن الاستغناء عنه، من هذه الزاوية، ونحن بصدد مختارات من نصوص الأممية الثالثة، فلقد نشرت هذه النصوص بشكل واسع في صحافة تلك الحقبة. أما نص علي كمال فولاذي المنشور في **La Correspondance Internationale** رقم 62، ص 505، تحت عنوان الحرب بالمغرب، فإنه على الرغم من التزامه بتوجيهات الدوائر الرسمية في الأممية الثالثة، يتميز بحساسية «عالم ثالثة» منتشرة، ذلك أن الكاتب ينظر من زاوية الشعوب المستعمرة من الصين الى المغرب، وإذا ما استثنينا نصوص هوشي منه، الذي كان يوقع باسم **Nguyen Ai Quoc** فإن هذا الأمر نادر في أدبيات الأممية الثالثة.

لقد دعم الرأسماليون الفرنسيون الذين كانت لهم أطماع في مناجم الحديد الغنية بالريف حركة الريفيين ضد الاسبان أملا منهم في الاستيلاء على التراب المغربي عندما تختفي إسبانيا المهزومة من المغرب.

أما دعم انجلترا للريفيين فكانت تمليه بواعث أخرى. لقد كانت ترغب في تجنب سقوط ساحل البحر الأبيض المتوسط المقابل لجبل طارق في يد الفرنسيين بعد انهزام الاسبان. لهذا حاولت أن تجعل من الريف دولة عازلة، وقدمت الدعم بشكل غير رسمي لعبد الكريم. إلا أنه تمت تسوية النزاعات الأنجلو فرنسية بخصوص المغرب بمقتضى اتفاق يعترف بحقوق انجلترا على مصر، وحصلت فرنسا لقاء ذلك على حرية التوسع الكاملة بالمغرب.

ومكنت هذه المساومات الدبلوماسية المارشال ليوطي من شن الحرب على عبد الكريم، إذ تذرع بظهور الجنود الريفيين في إقليم ورغة، وهي قاعدة تموين الجيش الريفي. وبهذا الصدد لا ينبغي أن ننسى أن حدود المنطقة الفرنسية من جهة الريف غير مسطرة بوضوح. ذلك أن ليوطي ما لبث يرفض كل عروض عبد الكريم الخاصة بتسوية هذه المسألة، إذ لم يكن يرغب في أن يعتبر زعيم الريفيين كشخص قانوني يمكن التفاوض معه.

إن حرب فرنسا ضد الريفيين حرب امبريالية وحرب هجومية من جميع الأوجه. فلقد قررتها حكومة بانلوفي بريان كايو بموافقة الحزب الاشتراكي الفرنسي الذي يساند السياسة الامبريالية للرأسمالية الفرنسية.

لقد واجه عبد الكريم تحدي المارشال ليوطي وقاتل الريفيون باستبسالهم المعهود. وكما صرح دوريو في منصة البرلمان الفرنسي، فإن اعتبار كل الشعوب المسلمة متجهة صوب الريف. وكان عليه أن يقول إن كل الشعوب المقهورة في آسيا وأفريقيا تتبع باهتمام متقد أحداث المغرب. فالكفاح المتواصل حاليا بالريف يدل على أن الامبريالية قد دخلت آخر مرحلة من مراحل وجودها، وأصبح انهيارها أمرا لا مناص منه لأنه ضرورة تاريخية.

لقد برز في السياسة العالمية حدث جديد جعلنا نستشف النهاية الوشيكة للامبريالية. إنه تضامن العمال المتقدمين في البلدان الامبريالية مع الشعوب المضطهدة بآسيا وأفريقيا. ويتركز هذا التضامن على المصالح المشتركة التي يشاطرها هؤلاء وأولئك والمتمثلة في محاربة الرأسمالية والامبريالية.

إن الحزب الشيوعي الفرنسي الذي يمثل طليعة البروليتاريا بفرنسا ليقف الى جانب الريفيين. وفي نداءاته يظهر تضامنه مع قضيتهم. وفي منصة البرلمان، نادى الخطباء الشيوعيون بحق الريفيين غير القابل للتفويت في تقرير مصيرهم بكل حرية وطالبوا بالجلاء عن المغرب، ووجهوا للجنود المقاتلين بالمغرب الشعار الجريء «تآخوا مع الريفيين !».

7) سان جاك : نقد «النزعة الكريمية» لدى الحزب الشيوعي الفرنسي (21)

حينما هاجمت فرنسا الريف علنا، قام الحزب الشيوعي الفرنسي الذي لم يكن يعرف شيئا عن الحركة الاستعمارية عموما ولا عن الحركة الريفية بالخصوص، بارتكاب أخطاء حسيمة في السياسة التي أتبعها وذلك على الرغم من تنبيهات بعض الرفاق الذين منعوا تماما من المناقشة على أعمدة الصحافة. وهكذا فالملاحظات التي صيغت هنا سبق لي أن صغتها في نصوص بلغت للحزب منذ بداية الحرب.

إن الأخطاء الرئيسية التي يمكن أن نؤاخذ عليها الحزب هي كالتالي :

1 مساندته اللامتبصرة لزعيم إقطاعي لم يلبث أن خذل شعبه.

2 إعلانه بأن النزاع الأوروبي حول المسألة المغربية نزاع وشيك في حين أنه لم يكن هناك أي شيء يسمح بإصدار مثل هذا الحكم.

3 تخريبه للجبهة الموحدة باتخاذه لموقف متطرف.

فمن خلال هذه الدوافع الثلاث، نرى أن هناك انحرافا نحو اليمين في الدافع الأول وانحرافا يساريا في الدافع الثالث. والخلاصة بالطبع هو أن الحزب كان يفتقر بكل بساطة الى القيادة فاندفع الى المغامرة.

ففي ما يخص «النزعة الكريمية»، ما فتئت مجموعة من الرفاق في المعارضة تحاربها بكل ما أوتيت من قوة منذ بروزها. ذلك أن خطأ الحزب ناجم عن جهله بالمسائل الوطنية في المستعمرات.

وبالفعل، سعت القيادة الى عزل حركة التحرر الوطني عن حركة التحرر الاجتماعي بغض النظر عن الملابسات، وبذلت ما في وسعها للتأكيد على حتمية مرور المستعمرات من المرحلة الوطنية، وأن هذه المرحلة لا يمكن أن تكون إلا صنيعة البورجوازية المحلية.

(21) انظر :
Textes de Saint-Jacques, publié dans **Les cahiers du bolchévisme** n°52, 30 juin 1926, p. 1421, sous le titre «Sur le problème rifain.

لقد عرف سان جاك في ما قبل، ببعض المقالات التي أعيد نشرها في Lutte Sociale الناطقة باسم شيوعي الجزائر. ولم يكن انتقاد سان جاك معزولا، فلقد أعطت Nicole le Guennec فكرة عن تطور المعارضات داخل الحزب، ولاحظت أن حرب الريف كانت أول فرصة وآخرها استغلها عدد من المعارضين الداخليين لخط الحزب للتعبير عن رأيهم في الصحافة الرسمية، المقال السابق، ص 58 وما يليها.

إنه لمن السخافة الحاجة الى التأكيد على أن التحرر الوطني مسألة ضرورية بداءة، وأنه لا يمكن تصور مجتمع شيوعي في بلد تحتله الامبريالية عسكريا واقتصاديا. غير أن الخطأ يكمن في التأكيد على أن التحرر الوطني لا يمكن أن يكون إلا من عمل المبادرة البورجوازية.

والواقع أنه، كما أثبتت ذلك في أطروحة رفض نشرها، هناك ثلاثة أنواع من الحركات الوطنية :

حركة ذات ركيزة اقطاعية في البلدان التي لا تحتلها الامبريالية اقتصاديا.

حركة ذات ركيزة بورجوازية، حينما تكون هناك في مستعمرة تم تحديثها بورجوازية محلية قمينة بأن تنافس اقتصاديا الامبريالية في البلاد، كما هو الامر بالنسبة لمصر.

وفي الأخير حركة ذات ركيزة عمالية وزراعية حينما تنعدم، في مستعمرة تم تحديثها، بورحوازية على درجة من الاهمية وتتوسع عملية بلترة الاهالي على نطاق واسع (تونس، الجزائر). وفي هذه الحالة الاخيرة، ينبغي التوجه مباشرة الى الجماهير. فالحركة العمالية والشعبية الخاضعة للحريات الفردية والوطنية تعبر تماما عن الحركة الوطنية.

إذن، فيما يخص الريف الذي يشغل بالنا اليوم، هناك زعيم اقطاعي كافح طيلة حرب الاستقلال من أجل ثروته الشخصية وبيته كما كان يفعل الاقطاعيون الاوروبيون سابقا. فليس هناك أي لبس في هذا الباب مادام أنه قد اشترط لعقد السلم الاعتراف بسيادته. فماذا كان ينبغي أن يكون بالتالي موقف الحزب بخصوص هذا الموضوع، على اعتبار ان الدعاية التي كنا نقوم بها لم يكن لها أي انعكاس بالريف، بل كان لها صدى في الجزائر وتونس حيث تأتى انشاء حركة ذات ركيزة عمالية وزراعية. لقد كان على الحزب أن يساند استقلال الريف بقيادة عبد الكريم طالما أن هذا الاخير يدافع عن «شعبه»، وأن يقف في وجهه اذا خذله، مع الاشارة الى أنه حتى لو انتصر فان الشعب الريفي لا يمكن أن يعتبر نفسه حرا بعد. وهذا يعني بأنه كان بامكان عبد الكريم أن يضاعف من الملكات القتالية لشعبه باصدار برنامج قوامه الديموقراطية الاجتماعية والاشتراكية الاقتصادية لجعله مهتما بشكل وثيق بمسألة الانتصار(22).

إلا أن الحزب بجل شخص عبد الكريم كما يبجل الداعية. وها هو اليوم في وضعية محرجة أمام الاهالي. والانكى من هذا أن السيد دوريو في مقال له غامض ومتردد ظهر

(22) الح سان جاك على طابع «الحركة الزراعية الاقطاعية والرجعية» في حرب الريف، وفي غياب النضج السياسي الكافي. ودون أن يكون بمقدورنا نعت سان جاك بالتروتسكية، فإن رفضه الأخذ بعين الاعتبار الظاهرة الوطنية في المستعمرات وتأكيده على ضرورة حركة عمالية قحة، يعكس مع ذلك بعض التعابير في الاشكالية التروتسكية تجاه الحركة الوطنية ودور الفلاحين.

بصحيفة L'humanité يوم فاتح يونيو سعى الى تبرير عمل هذا الزعيم الذي انتقل إلى صفوف العدو مرفوقا بحمولة 212 بغلا من الامتعة، مع أنه لم يكن يملك شيئا قبل الحرب، بينما لا يملك الريفيون حمارا واحدا لحرث حقولهم. فترك شعبه في اضطراب وهو يخوض الحرب ضد الامبريالية. بل ان الريفيين أنفسهم رفضوا مد يد المساعدة لنقل هذه الامتعة المسروقة على يد هذا الغاضب. والحقيقة أن دوريو يعطينا رأيا مؤسفا عن الطريقة التي يفهم بها الواجب. فانظروا الفرق بين هذه الطريقة في التصرف وطريقة الجنرال فينغ Feng الذي فر مهزوما الى روسيا ليعيش من عرق جبينه.

والنقطة الثانية التي نتفق فيها مع قيادة الحزب هو هذا الصخب المصم القائم منذ سنة حول امكانية نشوب نزاع أوروبي بسبب المسألة الريفية. وكان بودي أن أثبت بأن الامبرياليات المنحسرة اليوم قد أقامت جبهة موحدة ضد مخاطر انتفاضة المستعمرين. فهناك، اذن، تقابل بين سياسة الوحدة وسياسة التنافس السابقة. وهذا التقابل قد يكون موضوع مؤتمرات ومقالات مبطنة، لكننا لن نرى أبدا أوروبا تتطاحن من أجل ممتلكات استعمارية في الوضعية الراهنة.

إن فرنسا لتعلم علم اليقين بأنها اذا دخلت في نزاع مسلح مع أية قوة أوروبية بخصوص الريف فان المغاربة سيستفيدون من هذا النزاع القائم بينهما، وسيجعلونهما يتفقان بطردهما معا. فلا ايطاليا ولا انجلترا اللتان شاركتا في الحصار، ولا فرنسا ولا اسبانيا لن تتسبب في حرب أوروبية حول الريف. ومن الحمق ادعاء العكس.

والمأخذ الثالث يتعلق بالتخريب اللاواعي — وأقر بذلك — للجبهة الموحدة التي كان بالامكان اقامتها في بداية الحرب. ففي هذه الفترة كان عبد الكريم منتصرا، وكانت المعنويات مرتفعة لدى الجنود والجماهير الفرنسية. ولقد شنت الحرب بضراوة وكان بالامكان اقامة جبهة موحدة مع كل العمال المنظمين بفرنسا، الا اننا كنا نعلم بأن القادة الاصلاحيين لا يرغبون في ذلك.

لهذا، كان ينبغي أن نتجنب منحهم مبررا للنكوص والديماغوجية، حتى تكتسحهم الحركة ويلتزموا بشعار السلم مع الريف. غير أن الحاجة الى محاكاة البلاشفة الروس دفعت بهم الى رفع شعار «التآخي»، وهو شعار سليم من وجهة النظر الشيوعية، لكن الجماهير لا تفهمه، زيادة على كونه لم يشرح (23).

(23) نلاحظ أيضا الطريقة التي طرح بها سان جاك مشكل العلاقة بين الحزب الشيوعي الفرنسي والأممية الشيوعية، حيث آخذه على غياب استقلاليته ورغبته في «محاكاة البلاشفة». فهذا الاتهام بالبلشفة بل والخضوع لموسكو، أخذه امتدادا معينا داخل الحزب بخصوص حرب الريف.

. ومنح لهم مبرر لصرف الانظار الى الالزاس ــ لورين وذلك بالمماثلة الرعناء بين الاستفتاء الالزاسي اللوريني وبين الحرب الريفية، ثم بالاطناب الوقح الذي لجأت اليه وفود المؤتمر ولجنة العمل التي ضاعفت عشر مرات وخمسين مرة من عدد ممثليها. وكانت الضربة القاضية بفشل الاضراب العام الذي جاء متأخرا وأعد بتردد.

إلا أن المسألة الريفية ليست الا نقطة من المشكلة الاستعمارية التي لا يتوفر حزبنا بصددها على سياسة بالمعنى الدقيق للكلمة. فعمله يتمثل في الكلمات الطنانة بالبرلمان والمكتوبة بأحرف بارزة على صدر صحيفة L'humanité، كما يتمثل في الحركات الرمزية. غير أن هذا لا يكفي، اذ ينجم عنه اليوم كون العديد من المستعمَرين لهم خلافات عميقة مع قيادة الحزب، كما يترتب عنه ايضا كون الحركة التونسية مثلا قد اغتيلت عمليا عوض أن تركع الامبريالية. وهذا أمر معقد جدا.

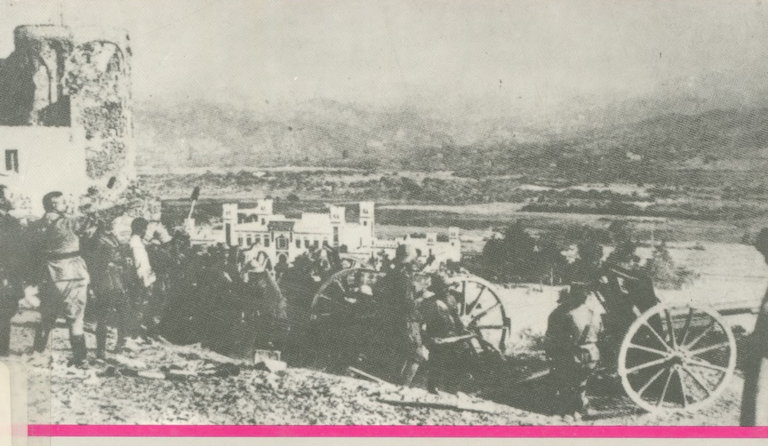
واليوم، بدأت الأزمة تتراءى للعيان. وينبغي على قيادة حزبنا أن تتزود بالوضوح. كما يتعين عليها أن تحل المشكلة الاستعمارية. وهذا أمر ممكن، ليس بممارسة سياسة زبونية وإبقاء الأحكام المسبقة العرقية، وأقولها صراحة، ولكن بتبني اتجاه جديد (24).

سان جاك

(24) أقل ما يقال هو أن رد الحزب أخذ شكل التجريح الشخصي والاهانات، ويمكن أن نسرد هنا كمثال مقال
P.Ferrand, **A propos de trahison**, cahiers du bolchévisme, n 54. 31 juillet 1926, p.1602.

فـهـرس

إنه ليس بالأمر اليسير بتاتاً البحث في مقالات ماركس وانجلز البالغ عددها 487 مقالاً، وفي دراسات ومساجلات روزا لوكسمبورغ، وفي نصوص الأُممية الثالثة، عن كل ما له علاقة بالمغرب وتقديمه وإدراجه في حقبته. فإلى ساعف يعود الفضل لتمكنه من تبيان أنه إذا كان البعض من هذه النصوص «أبعد ما يكون عن تجسيد اللحظات القوية في التحليل الماركسي للاستعمار» فإنه يكشف «أن مؤسسي الماركسية وورثتهم، بقدْر ما كانوا يحملون خطاباً كونياً جديداً، كانوا أيضاً أبناء عصرهم». فنصوص ماركس وانجلز محدودة (قدرة اسبانيا على خوض الحرب، قدرتها الضعيفة نسبياً على الاستعمار بالمقارنة مع قدرات فرنسا وانجلترا) ولا تدرس التشكيلة الاجتماعية المغربية وتطورها مع توغل الروابط التجارية، كما لا تتخذ موقفاً رئيسياً من مساوئ الاستعمار الذي تنظر إليه من زاوية مهمته الحضارية. لهذا فإن الأمر يتعلق بنصوص مهمة، ليس فقط لكونها تبرز بالقرينة المعاكسة الطريقة التي يمكن بواسطتها تقييم اسبانيا بالنظر إلى فرنسا وانجلترا، ولكن أيضاً لظهور بوادر التعاطف مع هؤلاء المحاربين (رجال العصابات كما يقال لهم اليوم) الذين يمارسون حرب استنزاف، وأيضاً لكون الأمر يتعلّق على الأخص - كما يشير إلى ذلك ساعف - بلحظة أساسية من تاريخ المغرب.



26 درهماً

الموزع الوحيد في المملكة المغربية
الشركة الشريفية للتوزيع والصحف
(سوشبريس) - الدار البيضاء .